مريم سبع

إذا زاد الوُدّ

كيان
Kayan
KAYAN PUBLISHING

إذا زاد الوُدّ

رواية

مريم سبع

إذا زاد الود
رواية

تأليف :
مريم سبع

تصحيح لغوي:
أحمد سعيد

تصميم الغلاف:
أحمد مراد

رقم الإيداع: 2017/7039
الترقيم الدولي: 978-977-820-011-9

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع
22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة – الهرم
هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772
هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُّ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانت ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

إهداء

إلى كلّ من وعدته أمانيه بنهاية سعيدة

لبداية سعيدة

فبين يديه تلوّى قلبه حينًا، تخبّط تارة..

ثمّ مات، في النهاية..

إلى كلّ من انتظر..

ربّما إلى الأبد،قلبًا..

ربّما، زال إلى الأبد.

عندما يجمع الحب بين التوبة والانتقام،

و يجمع الحب، بين الإنتظار والإنتظار

قد تخفى عن الأزهار بعض الأسرار..

فيا معاشر الأزهار!

هاكِي الأخبار..

وحدها الجبال تدوم.. فيما ترحل الأنهار.

الوصال

هما أمران في الحياة، كلاهما أمرٌّ من الثاني

أن تحبّ فتُخذل..

أو يعود حبّك الذي خذل، وقد انقضى الأجل.

تنبّأت به الأرصاد الجوّيّة سيكون يوما مشمسا رغم أنف ديسمبر.

لكنّه ديسمبر..

فما كان غير مكفهرّ السماء، مغتاظ الغيوم، قارس الأنفاس، تماما كما تحبّ وترضى عنجهيّته.

سمعت مزامير السيارات تقترب، التفتت نحو النافذة التي تترقب قدومهم لمّا دُفع باب الغرفة بحماس:

-لقد وصلوا! لقد وصلوا!

-أعلم..

ردت «جوري» على «شِفاء» أختها، التي ما لبثت عادت من حيث جاءت، وعادت جوري إلى مرآتها، يغازلها رأيها فيها.. فعلا، لا يمكن لامرأة أن تفوق جمالها إلا في يوم عرسها.

سمعت باب سيارة أُتْرِس، التفتت ثانية نحو النافذة، قامت إليها تجر ذيل الطاووس، نظرت عبر زجاجها فرأته أول ما رأت، لم تفهم شعورها ورأيها فيه أنه أجمل من مرآتها..

عبست..

كادت تشعر بالغيرة، أو هي شعرت بها ولا تدري ممن؟! فاشتبهت بالبدلة السوداء التي كانت تضم جسمه الذي أوتي بسطة..

ابتسمت..

هو لم يحلق ذقنه نزولا عند رغبتها وإكراما لمستحبها، يبدو لم يعد من داعٍ لغيرتها لا من بدلة ولا من غيرها، إذ على ما يبدو صار لها..

تنهدت..

تعجز عن التصديق أنه صار لها..

فُتح باب الغرفة مجددا:

- لا تدعي عريسك ينتظر طويلا، انزلي نراجعك لعلنا نحدث بعض التعديلات الطفيفة، هيا يا ابنتي..

نظرت عبر نافذة -التي كانت- غرفتها آخر مرة قبل أن تلحق والدتها، رأته يضحك ملء فيه حين كان القلق يقرضها كقطعة خشب بين فكّي قندس، تمنّت لو كان في وسعها أن تتركه ينتظر عشرين سنة!

كما تركها كل تلك السنوات، تنهدت.. حتما هو أوفر حظا منها، وسارت خلف والدتها إلى الصالون.

***

انقضضن عليها وتعالت الزغاريد، ورحن واحدة تنفض على وجهها مزيدا من مسحوق الأساس، وأخرى تتأكد من تماسك سنام الشعر على رأسها، وأخرى تشد نهايات الثوب، حتى أسدلت شِفاء الطرحة على وضاءة وجهها وهي تنادي فرحة مرحة:

- شهاب! شهاب! نادِ صهرك يأخذ عنا زوجته!

وانفجرن ضاحكات، كل الوصيفات.

أمّا جوري فما بدت إلا مترددة الفرحة، كلما همّت أن ترتخي وتضحك تشنّجت واختُزِل الأمر محض بسمة باردة متصنَّعة. كانت لحظات لا شك سيخلدها تاريخ حياتها، تلاطم بين أمواج الماضي والحاضر والمستقبل، وكأنّ كل أبحر العالم هاجت لها، أو في داخلها.. تزوجت التي ارتابت في أمرها أنها قد تجسر كافيا يوما وتخطو هذه الخطوة، أو.. تقفز قفزة هكذا.

هي مرة واحدة ووحيدة تلك التي وثقت فيها من رغبتها في توريط نفسها في شباك الزواج، ورضيت قفصه بديلا عن سماء عزوبيتها، كان ذلك لمّا أحبت «أُحُدا».

- أُحُد آت!

صاح رأس شهاب يطل على مدخل الدار.

فورا رفعت النسوة خُمُرهّن من على أكتافهن وألقين بها على رؤوسهن، وهناك شعرت جوري بأنّ قلبها يعمر صدرها حقّا.. حين دخل عليهم من لم يخرج يوما من قلبها.

- هيا أدّوا الأمانات إلى أهلها، ناولوني عروسي!

قال أُحُد متهلل الوجه في نبرة مازحة وقد صار بعد الباب.

نظرت إليه عبر أستار وجهها الشفافة البياض، كان باسما مشرقا حدّ هدّأ من انفعال قلبها التحديق فيه، إنها لمحظوظة به مرتين، مرة أنّ من بات زوجها هو بكل هذه الروعة، ومرة تجعل منها ملكة المحظوظين في مملكة المفطورة قلوبهم، أنها عاد إليها حبها.. وعودة قوية.

اقترب منها وهمّ بالكشف عن وجهها، فردّت بيديها بلطفٍ يديه وهي تهمس:

- ليس الآن، ليس هنا..

تنهّد خائبا وأشار عليها بذراعه أن تمسك به وهو يقول:

- ماذا يقول شكسبير أيضا؟ «ما أشقى من لا صبر لهم»، فما أشقاني يا ساعات صبري ما أشقاني! يا باب الصبر!

أمسكت بذراعه وهي أقل لطفا هذه المرة، ماذا يعرف عن الصبر هو؟ وكيف يجرؤ ويجيء على ذكر باب لا تحسبه إلاّ أُوصد بعدها! «ساعات صبره» تهكّم الصوت المقلِّد في داخلها، أليس الأحرى بهذه أن تركع لسنوات صبرها؟!

شعرت لآخر الأفكار التي راودتها بغضب مجنون أيقظ جراحها حتى كادت تفلت ذراعه، لولا أنها نفّست عن شحنائها في مشهد في خيالها تقتلع فيه خاتمه وترمي به على وجهه وهي تقول: لا أريدك!

عادت إلى صوابها بعد آخر كذبة، آه كم تمنّت في الخوالي لو كانت صادقة هذه..

هذا الرجل في كفّة وكل زينة الحياة الدنيا في الكفة الأخرى، وكل زينة الحياة الدنيا.. لا ترجح كفتها.

عذبتها سنوات فراقه وأذاقتها وجعا ذا كمّ وكيف حتى لكَم استرحمت الليالي أن «لا أريد أن أريده بعد الآن».

***

اهتزّت داخل برنوسها الأبيض لدويّة بارود استقبلت أوّل خطوة لها هي آخر عهدها بالحياة في بيت والدها، غلبتها دمعتها عندما خطت زيادة على تلك الخطوة الفاصلة بين حياتين لها.. بين إنسانتين منها.

شكرت الله أنّها مغطاة كلها، من قبل منبت الشعر وإلى ما بعد أخمص القدمين، كان كل ذاك الرداء عليها يشعرها بالأمان، ولولاه أبدا ما كانت استطاعت مواجهة جميع ذلك الوابل من الهرج والمرج يحيط بها ولا يبالي بسواها، وبفضله أيضا لم تضطر إلى خنق مجرى قنواتها الدمعية، بل أذنت لسوائلها أن تتدفق بأشجانها.

قصيرة الحياة، حتى لو كانت قصيدة لكانت من بيت واحد، وها هي تغادر بيت الشطر الأول، بيت طفولتها وأيام دراستها وأحب ناس هذه الدنيا وأقربهم إليها، الذي يضمّ غرفتها و مساحتها الخاصة، بعد اليوم لن يكون هناك من مساحة خاصة، وهذا أمر لا يبعث على الارتياح والانشراح، من سوى أنّها أمست في قلب الحدث، والمتاح الوحيد الوارد هو أن تتقوقع السيارة التي جعلوا منها عروسا هي الأخرى.

ساعدها أُحُد وساعدته شِفاء على ثوبها، ثم انطلق الموكب مزمّرا كما جاء.

وضع يده على يدها، فكأنّما من غرز سبابتها والوسطى على أنهما لقابس داخل مقبس وذاك أخطأ في هويّتهما فلم يبخل بالتيار عليهما، وكمنعكس شرطي أكسبها إياه كيف تُنَشَّأ البنات عندهم، كادت تخطف يدها تماما كما لو كانت يده صعقة كهربائيّة، لكنها تذكرت.. وكيف نسيت وهي عُقر جلبة مفتعلة على شرفها أنها صارت من حقه.

بدأت أنامله تتراقص على ظهر يدها كأنّه يراجع عليها معزوفة بيانو، يريد أن يقول شيئا، بلى كان يقول شيئا..

التفتت إليه ورفعت عن بصرها تمادي غطاء الرأس، فرأته يبتسم ابتسامة لا عهد لها بها، بعينيه.. برشّة مكر نثرها على نظرته، ففهمت أنه يهيئها لمشروع السهرة.

والموكب البهيج يجوب بها شوارع المدينة وأحياءها، يجري سعيدا نحو قاعة الحفلات، راحت تتفرّج عبر نافذة وسيلة نقلها الجميلة، كل شيء بدا مختلفا، كل الصور.. حتى أبسط البسيطة منها عادت تبدو مؤثّرة.. مرّوا أمام

كافيتريا «خاتم الخطوبة»، وكان صاحبها هكذا كنّاها تشجيعا للعدد الكبير من أزواج المتحابّين الذين كانوا يقصدونها على أن ينتقلوا بعلاقتهم إلى مرحلة أكثر جدية وأصدق احتراما، ثم اثنان يغادرانها، كأنّ نظرتاهما لبعضهما يدان تتشابكان الأصابع، ومضيا في سكون وهدوء.. بركة لا يمنحها غير الحب.

سرحت جوري تبصرهما حتى سهت عن عرسها، حتى كادت ترفع عن وجهها لمّا ابتسمت الحبيبة لخطيبها وهي تذكّره وتتذكّر معه روعة خاتمه الذي بفضله أتمّ حسن يدها، وهو يومئ برأسه ويبتسم بأغلب حواسّه، لو لم يوقظها أُحُد بجرها إليه شبه غاضب:

- لا بأس أن تُبدي زينتك للمارة، أمّا أنا فلا!

استدارت جوري إلى الزجاج الخلفي للسيارة، إليهما وقد صارا خلفها، وابتسمت تمتمة:

- ما أجمل الحب عندما يكون صادقا!

تسمّر أُحُد في مكانه وادّعى أنها لم تصله تمتمتها، لأول مرة في حياته شعر بخوف خاف منه، كان يعلم أنها لم تسامحه إلاّ شكليا، وأن الله سبحانه من قال لها «كوني له»، وإلا والله ما كانت! يدرك تماما أنه ليس لأنه تزوجها فهو فاز بها، النتيجة لم تُحسم بعد، ومباراته معها يحسبها تحتمل بعض الأشواط الإضافية.

إنه لتحدّ السعي للفوز بقلب سليم معافى، لم يُطعن ولم يُغدر.

أمّا طلب القرب من قلب عليه ندبة هي أثر جرح أدماه يوما.. فهذا المقدم عليه بحق فارس أليث.

***

حطّوا أخيرا أمام القاعة قُبيل المغيب، نزل أُحُد مسرعا وأسرع إلى باب عروسه يفتحه لها، ثم مد يديه إليها ليقتلعها إذ كانت عالقة داخل ثوبها العالق داخل السيارة، مدت يديها إليه فصارت في الخارج، أسرعت شِفاء إليها تسوّي طيّات الثوب التي تسبب بها طول الجلوس، واستقبلتهما حماتها ترشّهما بماء الزهر، حينا جوري وتارة أُحُد، حتى بلغوا جميع الموكب ومن خرجوا لاستقبالهم أبواب القاعة فجوفها، وكل ذاك والبنادق تستفرغ أجوافها صوب صدر السماء الذي لولا أعلى، لأردوه مصفاة.

كان هناك كرسيان عظيمان، يقول الناظر إليهما بشأنهما أنهما لملك وملكة، مشى أُحُد بجوري إليهما، وعندهما مباشرة، أنزلت عنها برنوسها بمساعدة من والدتها، ورفع هو برقعها عن وجهها، فتجلّت أمامه كاللؤلؤة خارج صدفتها، ساطعة متألِّقة.. انبسط القطر العمودي لعينيه وترجرج الأفقي، ووثبت نظرته على كل ما تجهل منها، ثم أخذ بيدها إلى عرشهما، وجلس بجانبها.

نظرت إليه نظرة حسرة، وانقطع سمعها عن كل تلك الطربيّات المدفوفات التي تكاد تعرّي القاعة من سقفها، لمّا ردّ عليها بنظرة عين السلام تشهد ألاّ شريكة لها على قلبه، ثم اقترب من أذنها وهمس، وكانوا التقطوا لهم من الصور، وحنّطوا تلك اللحظات المشرقات سعادة على شريط فيديو عنونوه لاحقا عرسهما.

- ألاقيكِ فيما بعد...

وغمزها بعد أن قبّل يدها شبه راكع والملأ يشهدون.

لحقت نظراتها خطواته تغادر قاعة النساء، وقبل أن يتوارى كليّة عن الأنظار استوقفته مخترقة لباب القاعة داخلة إليها لمّا كان هو كذلك يخترقه لكن خارجا، ظهر عليه أنه سُرّ لرؤيتها وبدأ يردّ على تهنئتها، كانت تلتحف بعباءة سوداء وتضع على رأسها خمارا أسود كذلك، إذ عندهم هكذا تغطي النساء أثواب حفلات الأعراس والتسريحات، ولمجرد أنها لمحت خلف المنضمّة الجديدة إلى الفرح، نسيت جوري غلوّ قوانين اللباقة المفروضة على العروس، كأن تهدأ هدوءا هو أقرب ما يكون إلى الجمود، وثارت عن كرسيها غير متمالكة نفسها إلاّ نزرا، صاحت: «آستر»!

التفتت آستر إليها عن أُحُد، وهو ابتسم لها وغادر.

خطت جوري إليها خطوات متلهّفات ولو كارهٌ زيّها ومقامها في تلك الليلة، لكن آستر أدركتها أوّلا، ربّما لكونه أخف حسن هندامها، ربّما لجيشان عاطفي أعنف، وانقضّت الأذرع تتنافس الضمّ.. قالت جوري قبل مضمومتها:

- ما ظننتك آتية.

تحرّرت آستر وحرّرتها من ضمّتيهما، نظرت في وجهها وقالت بعينيها قبل لسانها:

- ما أجملكِ، عين الخالق تحرسكِ من عين المخلوق.

ساقتها جوري من يدها إلى الكرسيين، جلست وأجلستها كرسي أُحُد ثم قالت:

- كبتُّ شدّة حاجتي إليك في مثل هذا اليوم، وعملت جاهدة على كتمانها فلا يتراءى لك منها ما يكلّف نفسك غير وسعها.. ما أحببت أن أحمّلك ما لا طاقة لك به ، لكنني رجوت، أكذب لو قلت ما رجوت، رجوت أشدّ ما رجوت أن تأتي، ورغما عن كل الاعتبارات!

بزّرت آستر نادمة:

- لو تعلمين كم آسفة أنا أختي، لكنني ما ظننتني قادرة على رؤيتهم.. فتبيّن أنّني غير قادرة على ألاّ أراك أنتِ وأشاركك فرحتك مهما كلّفني ذلك من غصّة وكدر.

تذكّرت جوري فاستعجلت استفسرت:

- وهل صادفته؟

طأطأت آستر رأسها فمالت دمعتها وملأت عينها وكادت تنزل:

- نعم.

ثمّ أفلتت منها الدمعة:

- لكنّه تجاهلني.

أخذت جوري من على عينها يدها تردّ بها دموعا التحقن ويطالبن بالحريّة، احتضنتها بيديها:

- لا يستحق عناء حبك حبيبتي، وآه آه لو كنت أعلم! ما كنت سمحت لأُحُد يومها أن يأخذ مكانك فتأخذي أنت مكانه قرب «نيل» هذا.. هذا القلب الفرعوني!

عادت الشمس أطلّت على وجه آستر مجفّفة مقلة عينها، ابتسمت وحطّت يدها الثانية على ضمّة صديقتها ليدها الأولى:

- وإذن ربّما ما كنت الليلة لأنال حظوة أن أشهد وصال أجمل إنسانين قلبا وقالبا رأيتهما في حياتي، وأعزّ أصدقائي.

ابتسمت جوري فواصلت آستر:

-أُحُد يستحق، جوري.. أُحُد يستحق..

أكّدت وهي تربِّت على يدها.

اللّقاء

مبكّرة بعض الشيء، وصلت جوري إلى قاعة أوّل محاضرة، قبل آستر التي كانت اتصلت بها وأعلمتها أنّها قد تتأخر بسبب بطء يوشك على أن يكون ركودا في حركة المرور، وهذا أمر ليس بالغريب ولا بالمتجاوز رتبته داخل صف التسلسل المنطقي للأحداث، فقط مترتبة حتمية عن الانفجار الديموغرافي، أنّ سعة الطريق غدت لا تحتمل كثافة مركبية نامية نمو الكثافة السكانية.

حجزت على مقعدين، لها ولصديقتها الملتحقة، لا هما في الواجهة ولا هما في الأقاصي، وجلست تنتظر أمامها دفترها وعلى غلافه كانت اختارت لها شعارا: «على قدر حب المرأة يكون انتقامها»، وذلك استجابة لإعلان الأستاذ المحاضر الذي كان طلب فيه ألّا يقدم طالب إلّا وقد اتّخذ له على دفتره شعارا، ثم وهي كذلك جالسة تنظر وتنتظر، التفتت إلى المدخل تترقب حلول آستر، وإذا بشاب وسيم مهيب جلس خلفها مباشرة، وكان قبلُ نظر إليها نظرة أثنت عليها، قال لها مبتسما بعد أن تنحنح لتحريك صوته وبعثه من مرقده وهي تهمّ بأن تعود إلى وضعيتها الأولى منسحبة عن التفاتها:

- شكسبير...

انسحبت عن انسحابها وردّت غير متأكدة أنها من خاطب:

- عفوا؟

قال وقد تخفف ابتسامة من بعض غلوّه:

- المقولة على دفترك، إنها لشكسبير..

وكأنّ شدة تبسّمه الأولى الطائرة عنه طارت إليها وحطت عندها شبه ضحكة دافئة، رمقت وجه دفترها وأقرّت:

- فعلا.. إنها له.

ثم كردّ فعل عن فعله، عاينت دفتره الذي بين يديه، وقرأت سرا ما على غلافه «لا يهمّني متى وأين سأموت»، فتعرّفت جهرا:

- تشي جيفارا!

ابتسم وقد غض بصره عن شديد التحديق فيها..

علّقت، فقد كان بما نقش أثار فضولها:

- لكنني أظنّ المقولة مبتورة هكذا!

رفع إعجابه إليها أخرى ووضّح وجهة نظره:

- عندما وقعت عليها أول مرة استفزّني منها ما نقشت، ومذ ذاك اتخذته هدفا أن أعثر لهذه الكلمات القلائل والتي على الرغم من ذلك فقصّة بحدّ ذاتها.. عن نهاية.. لا أنكر أنّني انحنيت تقديرا لتتمّته، رجل همّه الفقراء والبائسون والمظلومون.. لكنّها تبقى تتمّته، فاستفزّني للبحث عن تعريف لنفسي، عن ملخّص لطموحي.. وأقصد هنا استفزازا إيجابيا طبعا، من ذاك النوع الذي

يحفّز عملية التفكير.. فعلا، ما هو الشيء الذي بعده سأشعر بأنني لو رحلت عن هذه الحياة، فلا بأس بذلك؟ شيء يجعلكِ تشعرين بالاكتفاء، بالرضا.. وأنا صدّقيني مذ صدّقت المقولة في بحثها عن غاية صادقتها، وإنّ خَلَدي ببحثي لفي كبد ونصب.

ابتسم وبادرعندما لاحظ انغماسها في كلامه:

- كأنّني نسيت الأصول.. أنا أُحُد.

انصرف انبهارها عن قوله نحو اسمه، ابتسمت في فكاهة:

- الجبل أم المعركة؟

اخشوشنت نظرته مازحا:

- ما رأيك؟

ثمّ تابع غير تارك لها مجالا للرد، سؤاله لم يُدرج كجواب ولا انتظر جوابا، فقط صدر عن خفة روح وحس دعابة ينصح بهما سلوك راق كتجاوب مع متحدث فاكه:

- إذن أنت من الذين يبحثون عن نهاية أو بداية لإشكالية البيضة والدجاجة؟

لم تفهم.. فلم تقل شيئا، وهو فهم ذلك من نظرة استغراب غطّت عينيها، وأصلا كان سؤالا مبهما بدا خارجا عن الموضوع.

توضّح واثقا:

- لن يعترض المنطق على قولنا لمّا نقول أنّ البداية مع الأصل والنهاية مع الفرع.. ليس منطقيا أن تعتقدي أن التمرة كانت قبل النخلة.. بالمثل يجدر الاعتقاد أن الدجاجة كانت قبل البيضة، وقياسا على ذلك ف«أُحُد» نسبة إلى الجبل لأن المعركة ذاتها نسبة إلى الجبل.. لا تتوهي كثيرا، هي قاعدة بسيطة: إذا أردت أن تعرفي الأول فهو الأصل وإذا أردت الأصل فهو الأول.

شعرت كأنه نسيم ذو شذى مرّ على إحساسها وداعب قلبها، قالت وأسراب قلوب خافقة عبرت سماء نظرتها انبهارا بذلك الرجل الوزين:

- إثراءٌ التعرف إلى مثلك أُحُد.. وأنا جوري.

فهم وفهمت بأنّ الاسم الجديد المضاف توا إلى قائمة المعارف سيكون لهما معه شأن أعظم من مجرد المعرفة والزمالة والصداقة جميعا.

التحقت آستر لهثى، وقاطعتهما ترفرف حولهما فراشات موسيقية شفّافة اجتذبتها أزهار نبتت في رياض نظرتيهما، فلو صادها عازف وأطعمها آلته لصاغ منها قطعة كلاسيكية قد تكون الأكثر شاعرية ورومانسية على الإطلاق، على وقعها كانت عينه تدعوها، تعرض يدها وتقول: «هل لي شرف هذه الرقصة؟»، على وقعها همّت عينها أن تناول يدها...

- تدحرجي أو دعيني أمرّ.

قالت آستر غير مستوعبة المشهد.

قامت جوري من مكانها لا تريد أن تبدّله فيتبدّل لذلك الجوار، قالت:

- مرّي.

ثم لأُحُد وهي تشير إلى آستر:

- آستر، أعزّ صديقاتي.. أو قل أختي التي لم ينجبها والداي!

ولآستر المبهوتة قليلا:

- أُحُد.. زميل لنا.

قالت ذلك وهي تتفادى نظرته.

في تلك اللحظة التحق بأُحُد شاب آخر لا يقلّ مظهره أهمّية عنه، فضحك الأوّل وقال:

- وهذا نيل، ابن عمّي.

ولنيل مشيرا إلى من تعني له وبعدها من تعني لها:

- جوري وصديقتها آستر.

ثمّ وهو ينظر في عيني جوري:

- وأرجو أن تصيرا أكثر من زميلتين.

ابتسموا أربعتهم وكل واحد منهم يحرك ملامح وجهه وفقا للذي ترجمته اللغوية كلمات ترحيبية من قبيل تشرفت ولي كل الشرف، ثم مزق أُحُد إحراج صمت يصيب عادة مثل ذلك الموقف بأن توجه إلى آستر برجاء:

- ألا تعيرينني مكانك آستر؟ لهذه المرة فقط.

نظرت آستر إلى جوري كأن لتستأذنها، فأذنت البسمة، لكنها بالمقابل ترددت أكثر عندما تعلق الأمر بأن تجلس هي قرب نيل، صارت تدور بعينيها في القاعة، وكان واضحا أنها تبغي من ذاك العثور على مكان بديل، فأبى أُحُد أن يكون السبب في نفيها بعيدا، خاصة وأنّ القاعة كانت امتلأت مقاعدها عموما من سوى التي لن يسمع جالسها ولن يبصر كافيا، قال لها مازحا مشجعا إياها على أخذ مكانه:

- ليس عليك أن تقلقي أبدا أو تخشي شيئا، أضمن لك أنّ هذا الكائن لا يعضّ!

ولم تكن نكتة سامجة.

بعد أن وُضعت أمام الأمر الواقع، شعرت آستر بالإحراج وفقدت من ارتياحها، ذلك أنّ نيل لم يكن أقل وسامة من ابن عمّه، بل في الحقيقة كان يقربه خَلْقا لدرجة أنّ أول وهلة لرائيهما كانت تكفي كي يقول يقربه دما.

تفهّم نيل ما شعر بأنّ جارته تشعر به، فقدّر أن عليه تلطيف الأجواء المشحونة بالقرب منه. نظر إلى دفترها بجانب دفتره لمّا كانت هي ترمق وجه دفتره كذلك، قرأ لها ما مدوّن على غلافها: «الحب هو تاريخ المرأة، وليس إلاّ حادثا عابرا في حياة الرجل»، ردّت هي لا شعوريا أسمعته مكتوبه، وقد صرفها التركيز والتفكير عن وجلها: «هناك عدّة طرق لمقاومة الإغراء، والطريقة المثلى أن تكون جبانا»..

عاد طرف الكلام إليه:

- مارك توين.. أنتِ؟

فهمت أنه يريد مقولته ومقولتها فردّت:

- مدام دو ستايل..

ابتسم مازحا:

- تشرّفنا!

ضحكت فارتخت فعلّقت وهي تتوسّم الحسنة التي أوتيها خَلقه:

- لا أصدق أنك قد تكون جبانا، أيها النهر العظيم! لأنّي.. لا أراك إلا جارفا.

تواضع مجراه لإكبار تلك المهرة العربيّة الأصيلة، يعدو جمالها البوكاهانتسي على ضفّته بعنفوان أغرى عنفوانه، فبالكاد فاه:

- «آستر».. اسمك أنغام.

شكر ابتسامُها إطراءه، بعد أول الأمر أين كانت منقبضة، الفرق واضح، صارت متحمّسة فأخبرته ما تعلّمه به معنى تلك الأنغام:

- إنها زهرة الصبر.

تحمّس لحماستها:

- نهر هادئ وزهرة جميلة إلى جانبه، ما أجملها من لوحة..

ثم كأنّه اعتراه ضعف ما أصاب من نظرته ونبرة صوته معا، فانزلق من شفتيه عرض متسرِّع:

- ما رأيك لو نرسمها، هكذا نحكم على كل منهما بالآخر إلى الأبد؟

مالت بنظرتها المرتعدة إلى مدام دو ستايل.. كانت تعلم أنها لن تحظى بمباركتها تلك، فأشاحت عنها سريعا حتى لا تذهب مواعظها بنشوة اللحظة، صار عقلها في قبضة قلبها:

- إلى الأبد..

انضمّ المحاضر أنهى بحضوره كل الدردشات، كي يعمّ الهدوء قاعة الفلاسفة. ثمّ من وقت لآخر طيلة زمن المحاضرة، كان أُحُد يفلت مقطعا منها أو مقطعين دون قصد منه، ذاقت عيناه حلاوة جمال مختلفة، هو عاشق الجمال.. فرجع بحاجة إلى جرعة جديدة من تلك الصورة القريبة كلما نفد مفعول سابقتها، وما كان مفعولها بطويل الأمد.. شعر بالسعادة، بقلبه يرقص بدل أن ينبض، مفعما بأمل بهيج جبار غريب..

ما هذا؟ هل يُعقل أنّه...؟!

على الأقل إنها هي ما من شك!

هذه المهرة البربريّة النمشاء.. هي فتاة أحلامه.

***

بعد بضع ساعة ونصف، وقع أذان العشاء على وليمة العشاء، يدور المدعوّون على هنيئها ومريئها تزخر بأصنافه الطاولات. هو أمر غير أكيد لكن محتمل جدا نظرا للإقبال الذي لاقته المعروضات من الأطباق: أنّهن يا لهن من شيفات الطباخات! فكرت جوري، أو ربما مستوى الأنسولين انخفض في الدم من شدة ما اهتزّت الأجساد واضطربت، فأيّة زلازل تلك التي كانت تضرب المعزوفات عليها؟ طاقة! لن يطيقها سلّم ريختر.. لكنّ الأكيد أنهن حرقن من السعرات الحرارية ما لو على بساط تمارين رياضية كنّ تعبن ومللن عُشُره.. إنّه جبروت المتعة!

شعرت بالبرد، هي لم تأكل شيئًا منذ الصباح، منذ بعض سلطة الفواكه تلك التي ظلّت أختها وبنات خالاتها وأخوالها وعمّاتها وأعمامها، يحرّضنها على فيتاميناتها أنّ بشرتها وسائر جمالها بحاجة إليها في مثل ذاك اليوم الجلل. أمكن منها برد تلك الليلة بالرغم من أنّ التدفئة ما كانت القاعة صفرا منها، لأنّ جسدها من كان صفرا من الطاقة، بل كأنّه كان يرفض النوع المعتاد من الطاقة، معتمدا على اشتعال أعصابها في تزويده.

من وقت لآخر كانت تقوم، تقصد غرفة مخصصة للعروس في تلك القاعة، تعيد النظر في مكياجها، تحسو شربة ماء، تسهو على ملامح وحركات آستر في المرآة، وتلك سعيدة لسعادتها وتنعش لها بعض الذي اهترأ من زينتها.

صداقتهما لم تكن حديثة.. هي تعرف آستر مذ أيام الثانوية، مذ أوّل سنة فيها، كانتا اسمين متتاليين على قائمة الحضور لواحد من الأقسام العلمية، ثم في السنة الثانية افترقتا عن نفس القسم، حيث بقيت آستر لمّا وُجِّهت جوري إلى شعبة أخرى، وعندما حانت البكالوريا، قرّرت جوري أن تتبدّل شعبتها

بشعبة أدبية، يقينا لنفسها نجاحا في تلك كما تأكّدت لها رسوبا في الأخرى، ذلك أنّها كانت تحب الأدبيات لرفقها بعقلها، في حين كانت العلميات تعصف به، وما كانت تنجح في هذه الأخيرة إلاّ لأنّها كانت تعمل عليها بطريقة أدبية، شيء كحفظها دون استيعاب مراميها حقا. ونجحتا كلتاهما، وهما لم تفتر علاقتهما طيلة الفترة الماضية.

ولأنها كانت ثورية الشخصية متمردة، لم ترض جوري لنفسها دور العنزة التي لا تحيد عن القطيع،

أرادت أن تخالف الدهماء التي كانت تتدافع على اللغتين الأجنبيتين بأن تجرب شيئا جديدا لا يجازف بمثله إلاّ جرىء، فاختارت –وكان أسرها عمقها قبلا- «الفلسفة».

آستر لم يكن مجموعها أتاح لها واحدا من الاختصاصات الثلاثة التي حكر عليها الميداليات، فأشارا على تدارسها الاحتمالات الأخرى باحتمال يفتن غموضه اختيار صديقتها وشخصها الفريد الميّال إلى كلّ جديد، أحبت إلى جنب ذلك لو تعودان معا كما في أول سنة في الثانوية.. تحمّست كافيا، فقفزت من ورائها.

***

في الجهة الأخرى من القاعة حيث الرجال، لم يكن من صخب سوى ذاك المنبعث من جهة النساء، كان الجميع يتحادثون بشاشة حول طاولات العشاء، وأُحُد يروح ويجيء بينهم، يتأكّد أنهم حظوا بالخدمة على أكمل وجه، لا يريد تقصيرا في الضيافة أو عيبا في الكرم، فهؤلاء لبّوه ليفرحوا

فرحه، ولمّا اطمأنّ أنّ الرضا سيد الجو، تسلل من القاعة طلبا لبعض الانفراد شعره فجأة بحاجة إليه.

في الخارج، لم يرحّب به البرد، استقبله بصفعة كادت تعود به أدراجه : لولا أن ضمّ سترته إليه, فردّت عنه بعض تلك الفظاظة التي لا يطاق منها وتحمّل هو الباقي، انتابه أنه ربما أخطأ عندما سمح لجوري باختيار موعد العرس حتى أخّرته ضدّا لرغبته إلى آخر شهور السنة وأشدّها بردا، وقد كان يفضّل شهرا ربيعيا باسم الشمس يتماشى ومناسبة سعيدة، لكنها رفضت وعاندت متخذة عدم فراغها من تجهيز نفسها ذريعة، وهو يعلم جيدا أنها ما كانت إلّا تماطل. رضخ لإرادتها حتى لا تنقلب تلك الذريعة إلى واحدة تبرر بها فسخ الخطوبة.. فلعله في آخر الأمر ما كان له من خيار آخر سوى الموافقة.

استدعى القمر بصره إلى السماء، وألهمه بعض المراجعة..

في الحقيقة، هو لم ينتق الفلسفة ذات يوم، هي من انتقته قبلا وفهمته، وحدها.. فهمته.

تجلّى أُحُد منذ أولى السنوات التي انتقلت به من الطفولة إلى الشباب مراهقا لا يرهق إلاّ في سبيل والدته وأخواته ودراسته، فشبّ صائبا سديدا.. لعل وفاة والده صقلته، فقد كان رحل عنهم مبكرا مفوضا مكرها مشعل المسؤولية لأخيه الأكبر «أوْراس»، وطبعا بذرة الرجل الجبل فيه أبت إلاّ أن يتقاسم العبء مع أخيه ويحمل عنه من أثقاله، فكانا خير خلف لوالدهما الفلاّح القويّ المجدّ، ونعم الابنان والأخوان.

في دراسته، يذكر أن الفلسفة كان لها وقع مختلف عليه، لم تكن متابعة حصصها محض واجب ولا مراجعتها بحت لازم، اتفق معها كثيرا حتى علم أنها التي سيتبع سمتها لاحقا بعد أن انتقل إلى الثانوية أدبيا، وهناك تخصص فيها كأوّل إجراء، وكانت رغباته لا توجيهات مفروضة عليه، إذ مردوده الدراسي كان ليمنحه شعبة اللغات كما كان الختامي لمرحلة التعليم المتوسّط ليعطيه الحق في الانتساب إلى الشعبة العلمية مختارة نيل، من لم يلبث سئم المجال العلمي، فلو كان ينجح فيه فالفضل لشقّ النفس، ثم كم أعياه قبل أن يوافق عليه طالبا جامعيا.. البكالوريا أعادها ثلاث مرات، والثالثة فقط التي كانت الثابتة، فقرّر أن يواصل مشواره التعليمي مع ابن عمّه بعد أن التقى النجاحان، كان يريد أن يؤنسه ويعلم أنه قادر على ملء رأسيهما في نفس الوقت، فذاك طرح الامتحان أرضا من المحاولة الأولى.. كما كانت لأُحُد طريقة جذابة مغرية في الحديث عن التي يهوى أمّ العلوم ومسعّرة الفكر، على حدّ قوله، فكان ما كان، وتسجّل نيل مشروع فيلسوف هو الآخر.

قدما من منطقة جبلية إلى وسط المدينة لأجل مزاولة دراستهما الجامعية، ومتانة علاقة أُحُد بذاك التوجه العلمي والاتجاه الفكري أحكمت قبضتها عليه في كلية الفلسفة.. يوم أهدته جوري.

عاد خطوتين إلى الوراء، اتّكأ بظهره على الحائط ونظرته القاتمة تتحدّى السماء القاتمة، تلمع لمعان نجومها، معلّقة بها تعلّق رضيع بثدي أمّه، تسألها.. هل سينجح في استئصال ورم طعنته من قلب حبيبته؟ هل سيستطيع محو كل تلك المسافة التي رسمها هجر كل تلك السنوات؟ هل سيستعيدها؟

تلك المرهفة التي كانت حسبها من الحياة كلها.. طلّته.

ابتعد عن الجدار وهو لا يدري، : أحبيبات الجامد من ذاك الجماد بدأت تتسّرب إلى داخله مخترقة حاجز سترته؟ أم أنّه آخر ما راوده من أفكار؟ بث رعبا باردا، اصطكّ له ظهره.

***

بدأت الحمولة عن ظهر القاعة تخفّ شيئا فشيئا، حتى ما بقي عليه غريب، إلاّ أقرب قريب أمست جوري ترى، دخل شهاب واقترب من تجمعهن حولها ثم قال:

- تجهّزي أختي، أُحُد بانتظارك.

لبس وجهها صفرة أفقع من تلك التي يصبغ بها شحوب البرد مخلوطا بانخفاض سكر الدم، حانت لحظة التغيير الكبير والميلاد الثاني.. ابتلعت ريقها وهي تشعر بارتباك ضيَّقَ على قلبها، صارحت والدتها بنظرة متردّدة، تضعضعت بين يديها، فرّت إليها تحضنها وتطلب حضنها، وهناك قفزت دموعها من على شرفات العين العالية، لم تكن متفائلة ولم تكن تتعمّد ذلك التشاؤم.. إحساس مُرّ يلاحقها أينما من التناسي والتجاهل حلّت هاربة منه، من الآن فصاعدا واجب عليها أن تحب هذا الرجل طوعا وهي تحبه كرها، عليها أن تنسى ما لا يُنسى من الوجع، أن تغضّ الطرف عن جراح جليّة، أن تعفو، والعفو لا يكون إلاّ عند المقدرة.. هل هي من حمّلت نفسها كل هذا؟ أم أنّه قدرها من يحمّلها كلّ هذا؟ كيف ستبلي؟ وروحها كسيرة وقلبها عليل؟ وعلى الرغم من أنه مَن وراء كسر روحها وعلّة قلبها، فإنها لا تريد أن تكون تكفير ذنبه، ولا أن تأخذ بثأرها لنفسها منه بنفسها، لا تريد أن تقتص منه، لا

تريد أن تحاكمه أو تحكم عليه، الله على الظالمين! الله مع التائبين! هي أضعف من أن تعذّب، هي أضعف من أن تسامح، تخشى لو عذّبت أن تهلك بعذابها، تخشى لو سامحت أن تتبرّأ منها جراحها وتنفر من جسدها روحها.. يا الله! ما هذا الذي ورّطت نفسها فيه؟ لماذا وافقت؟ ادّعت أنّها كانت مكرهة بطريقة غير مباشرة، المجتمع والأهل والسنّ.. وكانت مكرهة حقا وبطريقة غير مباشرة حقيقة، لكن لا دخل للمجتمع فيها ولا للأهل ولا للسنّ، لأنّها كانت مكرهة قلبها.

دنا بكاؤها من أن يصدر صوتا، فانعتقت منها والدتها بلين، وابتسمت لها وهي تمسح دموعها، وتطلق من تلك الضحكات التي خلفها من الشجا ما مؤجّج سخونة قلب أمّ تهب ابنتها، التي حملتها وولدتها وأرضعتها وربّتها حتى نمت امرأة زاهرة، وهي تقول:

- ياي على مدلّلتي، ماذا صنعت منك أنا؟ من يراك يقول لن ترينا بعد اليوم أبدا!

أحضرت لها شِفاء برنوسها وساعدتها آستر على جعله عليها، فيما كانت والدتها غابت دقائق معدودات كي تعود وفي يدها وشاحها، مدّته لها قائلة: هذه ليلة باردة، ستحتاجين إليه.

تناولته جوري حتى وهي لا ترجّح احتمال حاجتها إلى مثله فسيارة أُحُد مجهّزة بتدفئة، لكنها أمسكته لحاجة أخرى، عاطفية ربّما.. وهو أفلت دموعها مجدّدا.

أطلّ شهاب:

- هيّا أختي..

تأمّلت وجه والدتها قبل أن تغيب، رأته أجمل من بدر تلك الليلة الشتوية القارسة البرد المستعيرة من الصيف صفاء سمائه، فغنيّة نجوم مشعّة..

كان يوما غريبا حقّا، متناقض السماء بين نهاره وليله.

قبّلت يدها وتوسّلت رضاءها واستجدت دعاءها، والحنونة ما حرمتها، وأسبغت عليها من نعم الاثنين.

التفتت إلى أختها تريد تقبيلها وأن ترجو لها ليلة سعيدة وأحلاما هنيّة، فالليلة لن تكون بجوارها ولن تشهد نومها ولا سِنته، لكنّ شِفاء كانت مشاكسة الطبع لعوب طريفة، ابتسمت لها خبيثا ثم والأخرى تقبّلها همست في أذنها: أريد تقريرا مفصّلا..

فضربتها على ذراعها مازحة الباكية، وتلك انفجرت ضاحكة مضحكة المشجونة معها. استلمتها آستر، تعانقتا زمنا دون أن تنبسا ببنت شفة، فالكلام احتقن ووحده الصّمت أذعن للشجا.

رافقنها إلى فتح الباب حيث داهمهنّ الزمهرير، فاستنجدت جوري بوشاح والدتها وضمّته ضمّة القبر على أعلى جهاتها الأربع. كان والدها أوّل الوقوف المنتظرين، أخذ بيدها وضمّها إلى صدره بأقوى من الذي كانت تضمّ به طيب والدتها حتى نسيت غطاءها في دفء حضنه، وضمّته كما كانت تضمّ الأوّل. ثمّ بنفس مزاج أخته شِفاء، ربّت شهاب على كتف أخته الكبرى قائلا في نبرة كاسرة للأحزان:

- هيّا هيّا أيّتها المجنّدة، هل كنت تحسبين أنّك معفية من الخدمة العسكرية؟ سترين هذا الهداد إلامَ يتحوّل في ثكنة الملازم أُحُد!

تحرّك أُحُد من خلف والدها إلى الواجهة، ونطق وهو يضمّ ابتسامة عطوفة إلى ضحكاتهم:

- بل أُطبق عليها جفناي سكنى لها.

رفعت جوري عينين تناسلت حولهما قطرات من ماء فكأنّهما زهرتان فاتحتان فاتنتان مملوءتان ندى، إلى قمّة ذاك الطّور المُنيف قُبالتها، فقرأت في لحظة واحدة في عين واحدة كتبا بل مجلّدات عن الحب وطرّ أسمائه، وشاهدت لها تعاريف أخرى، في عينه الأخرى.

ساق والدها يدها إلى يد صهره وقال قبل أن يودعه الأمانة:

- طلبتَ يدها وها أنا أعطيكها، ولا أحبّ إلى قلبي منها تبقى في يدي أبدا ما بقيت.. هل رأيت يا بنيّ كم أحببتك وكم آثرتك؟ فاحفظ أمانتي كما حفظتُها وأحببتُها هبة من الله ربّي، ولا تكن يدك إلاّ لها فترى فيها يدي، فإلّا تكن فاحفظ أنّ لها أبا، واذكر أن له يدا! خذ يا ولدي، خذ.. لقد حظيت بثقتي، فابنتي.

طأطأ الجبل قمّته اعترافا بكمال عطاء جبل أجلّ، وردّ وكلّه عزيمة على الشكر:

- حسن ظنّك له عندي جدوى، ولن يضيع سدى، ثق ولا تقلق أبدا يا أبي.

وفي تلك اللحظة الشاعرية الصادقة، صارت يدها في يده.

التحق أوراس، ألحّ على أخيه إذا كان متأكّدا أنّه لا يريده أن يتولّى القيادة عنه، وأُحُد كان صارما في رفضه الشكور وغير الكفور عرْض الخدمة، فدعا له ولعروسه بالسعادة والهناء، وردّ أُحُد بأنّ سعادته لن تكتمل إلاّ يوم يراه عريسا هو الآخر.

ومضى العريسان، ممسك أُحُد بيد جوري بقوّة يد أمّ تقطع بيد صغيرها الطريق وتخشى عليه سيّاراته، فتح لها الباب، وراحت هي تلخّص كوكب ثوبها عليها لأجل أن يستوعبها مكانها، فلمّا احتواها وألجم هو الباب عليها، مشى إلى مقصورته، وكانت الوالدتان والأخوات وبعض القريبات الأخريات خرجن بعد أنّهنّ تحجّبن وتدثّرن، تجمهرن حول الوالد والأخوين وبعض المقرّبين، حتّى عندما شغّل أُحُد مفتاح السيارة، بدأ الجميع يلوّحون بأيديهم ويبتسمون ويدعون ويودّعون المركبة المنطلقة.

نادت والدة جوري على ابنها وسط النّفر المودّع:

- شهاب ولدي، خذ معك شِفاء واذهب اصطحب أختك آستر إلى بيتها.

كان أوراس على مقربة، إذ يتحيّن فرصة كهذه، التقط الطلب جوّا قبل شهاب:

- في وسعي ذلك خالتي، على أيّ حال لا بدّ لي من إقلال بعض صديقات أخواتي، وطبعا ستكون إحداهنّ معي.. ثمّ حتما أنتم بحاجة إلى شهاب لأمور أهمّ.

وكانت الأولى من بين أخواته الثلاث التي وقعت عليها عين بحثه كبراهنّ «هلا»، فصات في ندائه لها إذ كانت بينه وبينها مسافة لا بأس بها، رجاها مرافقته لمرافقة صديقة عروسهم، ولتأت بصديقتها أو أخرى تنتظر توصيلة لو تشاء ذلك، غير أنّها اعتذرت منه أنّها منهكة تماما وصديقتها المقرّبة ستبيت عندهم، ثم وجهته إلى «حلا» التي بعدما دار ببصره في الأرجاء المحيطة دورة كاملة ما وجدها حاضرة مجاله البصري، ولأنّ الصغرى «غلا» كانت على مقربة حتى وهو لم ينتبه لها، سمعت كلام أخيها وأختها وتعلم عن أراضي أختهم حلا أنّها ذهبت منذ وقت قليل رفقة عمّهم لإيصال صديقتها، انقضّت على عرض أخيها ووافقت على مرافقته شريطة أن يقلّا صديقتها هي.

وإبّان كلّ ذاك، لم تكن آستر غائبة، سمعت كلّ ما دار بينهم من أحاديث تعنيها، ولو أنّها فضّلت في قرارة نفسها أن يكون شهاب مُقلّها، فإنّها لم يكن لها الخيرة من أمرها من بعد أنّ ذاك ما انتظر إلحاح أوراس وتنازل له عن المهمّة عن طيب خاطر، فقد كان ينتظره من المشاوير الكفاف، وما لبث أن طاروا به، وبهذا اضطرّت أن تقبل كرم أوراس متوصّلة إلى نتيجة.. أنّها إن جلست قرب رجل وكان في ذلك بعض الإحراج، فهي جوري بطريقة أو بأخرى.

صارت العلاقة بين أوراس وآستر حسّاسة.. ملعب وعرٌ عسيرةٌ ممارسةُ العفويّة عليه بأريحيّة، مذ تقدّم لها ورفضته ورفض رفضها، للسبب الأخير هي تعلم جيّدا أنّ مثل هذه الحركات إنّما هي محاولات أخرى لاستمالة عواطفها، لعلّها وعساها.

- بارك الله فيك أوراس.. : لقد جاء والدي لمرافقتي لكن في وقت مبكر، فأصرّت جوري على أن أظلّ معها حتّى نهاية السّهرة على أنّ شهاب من سيقلّني فـ...

قاطع أوراس تكلّفها في تبريرات ما عدّ لها من لزوم، هو ما ابتهج بشيء في كل ذلك الزفاف ابتهاجه بخدمتها وشكرها:

- أرجوك آستر، وما الداعي لأن تشرحي؟ أو علامَ تشكرين؟ أنتِ من الأهل، وبيتك في طريقنا.

قال ما قال وصرف وجهه لآخر ما قال تلقاء السيارة، وإلاّ كانت نظرته فضحت أمره، فكل الطريق افتعله لأجلها.

***

تكاد الطريق تخلو من مستعمليها، وأوراس يسير بالفتيات.

بين الفينة والفينة، كانت نظراته تخرج عن طوعه، تراود مرآة السائق الصغيرة فوقه، فتلك كانت تعكس إغراء، والإغراء وإن لا بد مقاومته، فالإغراء عاصفة مقاومته.

كم تمنّى لو أنّ الحظ حالفه في هذه الجالسة خلفه، أظفره إياها ورضًا يا رب! ثمّ الطوفان على ما عداها بعدها، حالفه حظه أم حاربه.

لقد أحبّها حبا غريبا.. اشتعلت فسيلته الأولى كبذرة قُبِرت في أرض بور، ولكنّها بأمر كالمعجزة تنفجر فيها الحياة ولا سبب للحياة، وتنمو ولا سبب

للنمو، حتى تطلع وتنتصب على وجه الأرض شجرة باسقة مورقة مثمرة يانعة عميقة الجذور المتوغّلة، لا أمل في أن تقتلع. ففي ذلك الوقت كان يعلم بأنّها لرجل آخر، رجل ما هو إلاّ ابن عمّه في الحقيقة، وهي تهيم به أيّما هيام ومتيّمة به أيّما تتيّم، حتى أنّه يذكر جيّدا أوّل مرّة تعرّف عليها فيها، كانت تبكي تقلّبات نيل المزاجية على كتف جوري بجانب أُحُد، وهو يومها شعر تجاه دموعها بمتناقضين: رقّة قلب وحنوّ عظيم خالهما في بادئ الأمر مجرّد انعكاس لروحه الإنسانية أو صرف نتيجة حتميّة لنبل أخلاقه وشديد احترامه للمرأة ورفقه بجانبها اللين، وفي نفس الوقت انتابه عتب غليظ على من كان سببا في ذرفها.

بالمقابل لم تكن آستر تزيغ ببصرها عن زجاج نافذة باب مقعدها ناحية المرآة أبدا، خشية حصول احتمال وارد.. تصادم نظرتيهما.

لم تكن تجهل مشاعره تجاهها، لكنّها مازالت غير قادرة على تجاهل مشاعرها.

هي تحترمه كثيرا، معجبة به كثيرا أيضا، حدّ التمنّي لو كان في وسعها أن تخرج من ظلمات حبّها لنيل، إلى نور حب أوراس لها.. تمنّي وفقط، لا سبيل إلى تحقيقه باجتهاد ما.

ومنذ متى تسمع القلوب من أصحابها؟

إنّه مغلوب على أصحابها في أمرها.. تلك الطّائشة.

أوراس رجل من فئة في انقراض، من ذلك النوع من الرجال الذين لا يمكن ولا بحال من الأحوال أن يكون معهم في القلب شريك، ولا حتى بقايا شريك، ولا

حتى شبحه يجوب أرجاء قصر القلب المهجور.

مثله في وظيفة عاطفية لا يصلح إلاّ رئيسا أو أقلّه مديرا، والجوْر عينه تعيينه مستخلفا أو نائبا..

مثله يُتوّج، لا يستدعى عزاء في يوم تشييع.

أثارت فيها أفكارا ممجّدة له عاطفة ما، فاختلست نظرة على وجل، بدا غارقا في أفكار ربّما تشبه أفكارها، فشردت تتأمّله..

هو ما كان أوسم من نيل، كان أشرف منه..

فبمجرّد ما تخلّى عنها ذاك وانتشر بعد قليل من ذاك بين معارفهم خبر زواجه، نشِط أوراس إلى والدها يخطبها منه، ووجدت هي في ردّة فعله تلك ردّا لاعتبار مسلوب وجبرا لكرامة مكسورة وبعض التخفيف، أمور شارفت بها خطيرا على أن تصير زوجة له، إلاّ أنّها انتهت أفكارها التي فاضت عن رأسها وخواطرها التي جاش بها صدرها، انتهت بردعها عن موقفها المتهوّر، فتراجعت عن تسويةٍ اقترحتها على قلبها المخدوع كي يهدأ، مساومة تقرّبت بها إليه كي تنجو من بطشه بها.. اتّفاقيّة سلام مزوّرة عنوانها الزواج برجل لنسيان رجل آخر.

وقتها كانت أزمة خيبة مشاعرها في أوجها، وتعاني جرّاءها كآبة مفرطة، وهذه كالحالة المرضيّة لن ينصح نطّاسي بالزواج استشفاء لها.. أرادت أن تتعافى أو كحدّ أدنى أن تشعر بأنّها على طريق العافية تمضي بخطى لا تعرف ما الرجوع إلى الوراء، مقبلة لا إدبار منقوش على معجمها.. أن تستعيد

قلبها فتعود به قدرتها على التعامل مع القضايا العاطفية، على السباحة في بحار المشاعر الهائجة.. كانت بحاجة قبل حب جديد إلى الوقت.. شيء كقطعة زمنية فاصلة.. مسافة بين الرجلين.. أمر لم يستوعبه أحد ممن كانوا على دراية بقصّتها، وجاءت التعليقات استخفافا بالذي كانت فيه من آلام، وإهانة لأحاسيسها الغبية على حد قولهم، فرفضها لرجل جديد مغزاه وفاء للرجل القديم، وكيف تبقى وفيّة لمن باعها ليس بالفول ولا حتى بقشوره؟ إنّما بلا شيء.. أو لعل بيعا بلا شيء يحتمل تكلفة أكثر، إذ من يبيع بالمجّان يحمل السلعة وينزل بها إلى السوق ويعرضها وينتظر أن يجد لها راعيا.

شخص تخطّاها كما لو كانت إرب أرض طوله ١٠ سم.. أو ٥.. أو عشبة برية.. كما لو أنها ما كانت..

كما لو أنّ شيئا لم يكن. كيف استطاع ذلك؟

صاعقة الطريقة التي يقلب بها بعض الناس.. صفحة بعض الناس.

غامض أمر الحياة، مبهم أمر الحب..

هذا يحب ذاك، وذاك يحب آخر، وآخر يحب غيرًا، وغير يحب مغايرًا.. لكأنّه خط مستقيم، كل نقطة من نقاطه قُدّ قميصها من دبر، ويمتدّ المستقيم وتدبّ النقاط، والمستقيم لا ينتهي والنقاط لا تتوقف، ومع ذلك لا تلتقي نقطة بنقطة أبدا.. ذلك أنّه ولا واحدة منها تلتفت للتي آخذة بطوق قميصها معلّقة بأستارها.. ولو فعل البعض، لتضاعف الكسب.

شعر بتحديقها فرفع بصره إليها أوقف بذلك حلقة أفكارها، ارتبكت فعلا سمار بشرتها الرملي حمرة أزهر لها وجهها الوديع، هربت نظراتها إلى الزجاج الأوّل، لكنها ما عادت تعي المناظر خلفه، حان دور عيونه المحرومة الملفوحة بحرّ البعد، بحرِّ القرب! أن تستظلّ تحت أغصانها المترفة لتلك الشجرة الوارفة الظلال.

كم كبت نفسه وقمعها كلما مثل بين يديها حتى لا تثور في حضرتها، لكن في ليلة العرس تلك..

إلهي كم كانت جميلة!

من غير تكلّف في زينتها، قلم أسود يرسم الحدود الدنيا لعينها البنية الشكولاتيّة، فيما كثافة رمشها الأعلى التي تكفّلت بالعليا تعمل عمل القلم عليها، ملمّع شفاه فاتح لا تمكن ملاحظته إلاّ لمعاينها عن قرب، إذ ما كانت أصرّت به على شفتيها الطفيفتين ذهابا وإيابا، ولا جدّدت بعض جفافه بعد كل تلك الساعات.. قليل بدا أضفى على حسنها الكثير، لمن تعوّدها شفّافة المكياج.

اجتذبت نعومة شعرها المصفّف خمارها الذي أشرقت لانعكاسه أرجاء بشرتها الصافية، فانزلق يطاوعها تدريجيّا إلى أن قاربت على إلقائه خلف رأسها لولا أن نبّهتها من شرود جديد صديقة غلا الجالسة قربها، فارتعبت وعادت به كأنّها زاجرة إيّاه إلى مكانه وكل شعرة متمرّدة عنه إلى مكانها.. لن تثق فيه مجدّدا، قيّدته بإبهامها والسبابة..

تهيّأ له أنّه في حياته ما شاهد ولا شهد أمتع من تلك الدقائق..

يا لزمنها!

يا ليتها كانت له، وهو كما أخيه الآن ماض بالفرج إلى الكرب..

امتصّته أحلامه فما انتبه إلى الممهل، قفزت السيارة، نطحت الأرضية، فتزعزعت للاضطراب أجسادهم، عادت نفوسهم سكنت بعد هنيهة ، إلاّ هو كأنّ تلك النّطّة كانت كُفية للفورة.. للثورة!

للحظة شعر بجنون لا يشبه رزانته وطبعه العقيل، وسوس له الانعطاف بالسيارة عن الطريق، بمبادئه عن الطريق المستقيم، فليذهب كل شيء إلى الجحيم!

لولا أخته الصغرى بجانبه، ذكرى.. والذكرى تنفع المؤمنين.

تنهّد مستغفرا اللّه تائبا إليه جهرا، ضارعا إليه سرّا أن يمدّه بالقوّة، التي يشعر أحيانا ما بقي له منها جلّ يُذكر ولا دقّ.. كمثل ذلك الحين.

***

على طريق أخرى، نحو وجهة أخرى، كانت سرعة المركبة الأخرى على عكس مخزون الوقود نافد مخزون صبرها، يطير أُحُد داخلها بثلاثتهم، ينظر بين الحين والآخر إلى التي خلف حماسته الزائدة، لا ينسى أن يقول ويقول جميلا، كإطراء أو اهتمام في قالب استفسار أو من الطرائف الخفيفات التي لها أن تُروّح عن النفس من الثقيلات.

جوري كانت تنظر عبر النافذة، تجيب بلا سخاء وتتجاوب بلا كرم، كانت الطريقة التي تردّ بها عقيمة لا يمكن أن يجري لها حوار، ففي الغالب تكتفي بابتسامة من وراء القلب.. مرّة هي على السماء، مرّة على بساط الأرض المتحرّك، وما هو إلا زمن قليل حتى ملّت وجه السماء وملّت وجه الأرض وملّت صوت أُحُد وملّت صوتها يردّ على صوت أُحُد! كانت غاضبة، وتبذل مجهودا لغمط غضبها هو أضعاف ذاك الذي كان يبذله هو لغويّا في سبيل الترفيه عنها، ثمّ عالجت أمرهما بأن عهدت إلى سدّ مخارج الحروف بتصرّف يفتقر إلى اللباقة، سألته إن كان لا يزعجه أن تستمع إلى بعض موسيقاها على هاتفها.. أومأ برأسه مبتسما، حاول إخفاء انزعاجه، لكنها أخرجت توتره عن صمته، فجأة صارت ربطة عنقه أكثر انحسارا من أن يتركها وشأنها، يمسح رأسه، يتمسّح بلحيته، يرمق إطراقها، مسحة الحزن على ملامحها، على بصرها التائه، يعود يراقب قيادته والطريق.. هل يعقل كل هذا الانقلاب؟ ولا كأنّها حبيبته السابقة، سأل نفسه وأجابها عاجزا عن إيهامها بالعكس: نعم يعقل، ففراقهما كان طويلا، طويلا جدّا.. تغيّرت خلاله شكلا، فهذه امرأة باهرة وتلك شابّة حلوة، أمّا عمقا فما كان من تغيّر سارّ، فقط تراجيديا.

معزولة السمع عن صمت الليل الذي وحدها مركبتهم كانت تنتهك حرمته باستعجال عجلاتها، بسمّاعتي أذنيها تنقلان إلى دماغها ألحان ناي ناعمة، وتلك ألفتها تحفّزه على إفراز الأندروفين.. آلت إلى حال أهدأ، وكانت في خضمّ هوشة ذهنية اعترتها.

اللّه على القدر وألعابه السحرية!

معه يستحيل التنبؤ بمصير الحمامة تحت المنديل، أو المرأة في الصندوق، أو القطعة النقدية في قبضة اليد..

كل شيء ممكن، وكل شيء هذا ليس للحصر ولا هو للإحصاء..

قد تبيض الحمامة نملة تضع نظّارات شمسية تحت المنديل!

كما قد تصير المرأة رجلا داخل الصندوق أو حصانا أو كتابا ناطقا!

فيما تطير القطعة النقدية، تطير!

حتى تلتحق بالسحب في السماء، ثم تهطل غيثا أو ذهبا وفضة أو تجلس ببساطة وسط السماء باسمة منازعة الشمس في عرشها، مدّعية أنها الشمس نفسها..

تطلّب منها الأمر زمنا هو أهل لتكريم وشهادة شرفية كي.. تنساه.

هذا العائد إليها من بعيد، من مكان بعيد وزمان أبعد..

نسيان لو تقدّمت به لرشّحها لنيل جائزة نوبل، إذ نسيان خاص..

نسيان.. بين الحاجة والنسيان.

لم تقدر على نسيان خالص، حاولت بكل الطرق، احتقرت مشاعرها، حقّرته لمشاعرها..

كتبت على ورقة مئة مرة «لقد جزاكِ عن الحب والإخلاص هجرا ونكرانا!» وعلّقتها على حائطها تواجهها بعينين شاخصتين كل ليلة قبل النوم.. كلّ ليلة!

اتّخذت لها دفترا صغيرا سمّته «الطعنة» وراحت كلّما شعرت بأوجاع الخيبة تعاودها تقيء فيه ألمها الذي سبب في حزنها، الذي سبب في غضبها، وعلى عكس آستر غصبت قلبها على أن يقوم من فوره وأن يبحث له عن خليفة، فمملكة بلا سلطان مصيرها الخراب.

كانت تنظر في كل متقدّم لها جديد، وتمعن النظر وتمنح الفرصة أولا ثم الاعتذار آخر الدواء، لكن ما من جدوى، بعد عديد محاولات بائسة، انتهت يائسة.. لقد علق في داخلها، وصار لا يتجزّأ عن الفؤاد والحشا.

لمّا فهمت ذلك أخيرا، استطاعت أن تحقق شيئا، فلو في معرفة الداء نصف الدواء، ففي معرفة حدود الداء وحدود الدواء كل الدواء.

سرّحت قسوتها على نفسها، أليست كافية قسوته؟ لن تعطيها الكلمة مجدّدا، حدّدت لها غاية جديدة ممكنة قبل أي شيء آخر: «التأقلم».

ستتعلّم فنون التأقلم وتتقنها، كي تمارسها على الوضع الراهن، كي تواجه بها الحرمان، بُعده عنها، فكرة أنه لم يعد لها.. وهذه على وجه التحديد، كانت من حديد.

قدرة الإنسان على التعايش مذهلة..

فالمريض بعد قليل أو كثير يتقبّل مرضه، ولا يزال يتقبّله ويتعوّده حتى يأتي عليه يوم لا يكاد يفرّقه عن أيام العافية مزاجا وحالة نفسيّة، وهناك من فقد

بصره وتراه لاحقا على الرغم من ذلك يبتسم ويضحك ومنهم من ألّف كتبا ومنهم من صار ناشطا، وآخر أصيب بشلل نصفي ثم تلقاه بعد زمن لديه قائمة مشاريع أخرى أنسب لحاله المختلفة عن ذاك أيّام ساقيه، ومن فقد عزيزا ظنّ أنه فاقد نفسه لفقده وبعد أقل من سنة تسمع عنه عادت مياه حياته إلى مجاريها وقد تصادفه في عرس أو حفلة.. متأنّقا متجمّلا.. وربما راقصا.

أكثر من اقتصارها على بني البشر قضيّة التعايش..

كثيرون لن يستغربوا لَقْطَة القطّة التي تقتات على العشب.

ما الذي قد يدفع بسنّوريّة أن تسلك منحى المجترّات غير قحط الظروف المحيطة بها؟

ومع هذا فإنّ جهازها العصبي البسيط يرفض الاستسلام ويحارب من أجل الاستمرارية والبقاء، وعادةً الأزمات هي التي تدفع بالمخلوق إلى اختراق حدود قدراته العادية.

هكذا تعاملت جوري مع فقد أُحُد، بأن صارت قطة آكلة للعشب، ما دام بلحمه بعيدا عنها، عاشت على عشب تفكيرٍ فيه.. لا يسدّ الرّمق.

***

بلغا النزل وكان منتصف الليل يحتسب على المستقبل القريب، تفصلهما عنه أقلّ من ومضة الساعة. نزل أُحُد نشيطا في كامل لياقته البدنية، هرع إلى باب توقه، وجدها ما انتظرت رقيّ تصرّفه بأن يفتح لها الباب وتهمّ بخروجٍ بدا عسيرا نظرا لحجم نفخة ثوبها مقارنة بفتحة الباب، مدّ إليها يديه يعرض

مساعدته، فنطقت أخيرا: «لا بأس، لا بأس»، وضمّت إليها بعد أن تحررت وشاح والدتها.

لآخر مناظرها، فتح الباب الخلفي لسيارته، التقط معطفه وآثرها مزمّلا إياها به، شكرته فابتسم وعاد إلى السيارة استخرج لها حقيبتها من صندوق الأمتعة، حملها بيد وبالأخرى احتوى يدها.

دخلا البهو، كان فارغا إلاّ من رجل في الاستقبال قام لفور مرآهما يمشيان نحوه، من الواضح أنّه كان بانتظار أُحُد، لأنّه أُحُد من حجز الغرفة. رمق العروس، فإذا هي القبعة البيضاء تغضّ رأسها، ابتسم للعريس وهنّأهما، ثم ناوله بطاقة إلكترونية لفتح باب الغرفة المحجوزة وهو يسأله إن كان بحوزتهما أمتعة أخرى فيطلب لأجله بعض الأعوان يساعدونه على نقلها، وأُحُد أمسك البطاقة نافيا في شكر حاجته إلى أية مساعدة، فالباقية حقيبته ولا يستدعي أمرها استدعاء أيّ كان، وجازما أنّه سيعود بعد قليل لأخذها.

الغرفة «٧»..

كانت هناك في أقصى الرواق من الطابق الأرضي، وكانت بانتظار أن يحلاّ ضيفين عليها.

انبلق للبطاقة الباب، دفع أُحُد بالحقيبة إلى الظلام ولعله انتوى بعض حركات الغربيين، لكنّها افلتت عن نيّته، وقالت معاندة مناشدة:

- أرجوك أُحُد، دعني تحملني قدماي.

لم ينزعج ولا اقترب من ذلك، ولا بدا قابلا للانزعاج:

- لكِ ما تشائين، فهذه ليلتكِ.

مال عن استقامته مشيرا بمدّ ذراعه إلى الداخل في سلاسة فرنسية وفي نفس تلك اللغة:

- après vous madame!

(من بعدك سيّدتي!)

وكان أضاء سماء المأوى الصغير.

دخلت..

أماطت عن كتفيها فرأسها فوجهها.. بانت ملامح المحجوزة لملامحها: باب الحمّام عن اليمين والغرفة بعد حوالي ثلاثة أمتار رواق. على إثر ردّ الباب، اقترب منها.. تراجعت عن غير قصد، ضحك فابتسمت في توتّر، اقترب مرّة أخرى، هذه المرّة كان لابدّ أن تصمد مكانها، مدّت نحوه معطفه لعله يصرف انتباهه وإقدامه قليلا، أمسكه غير مبال به البتّة، ربما غير منتبه لذلك من الأساس، اقترب حتى سحبت هواءها من أنفاسه، شعرت بقلبها يتخبّط في صدرها كسمكة فارقوها ماءها، ولم تكن متأكدة حيال ذاك الشعور، أشيء كالانزعاق أم تراكماتُ اشتياق؟ قال وعينه تلمع كأنّها نجمة من تلك سقطت لعينها الحائرة لم تعرف أين تفرّ بها ومجال رؤيتها صار فجأة ضيّقا:

- أحضر حقيبتي وأعود..

خرج فزفرت كل أنفاسها التي حبسها قربه دفعة واحدة، مشت بيدها على قلبها إلى الغرفة، أمرت زرّ نورها بكبسة من إصبعها أن يحذو حذو مصباح الرواق، وكان جلاّه مصباح الرواق، دارت ببصرها في الغرفة تتعرّف عليها، على تفاصيلها، فإنّها تفاصيل لا ريب ستسجنه الذاكرة مؤبّدا.

كانت غرفة بسيطة، يبعث على الطمأنينة لونها الفاتح: أخضر فستقي..

قريبة السقف، متقاربة الجدران، صغيرة الأثاث: سرير قُضم من عرضه لغرض في نفس يعقوب فأصغر من أن يريح نومة اثنين، إلى كلا جنبيه منضدة بها درج، مدفأة في زاوية، ثلاّجة في زاوية أخرى، خزانة على مقربة من الثّلاجة، تلفاز بين الخزانة والمدفأة قاعد على طاولة، وأخيرا منضدة الزينة عليها مرآة على آخر جدار متبقّ، غير الجدار المكتظّ وغير جدار رأس السرير والمنضدتين الصغيرتين، وغير جدار باب الشرفة.. كان الديكور يبعث على استقرار النفس، والهدوء المخيّم يحرص على شعورها بالأمان، كان اختيارا.. إمضاؤه أُحُد.

خطأ واحد في تناسق الصورة..

باب الشرفة طافرة عن ديكور دار الأقزام السبعة مطبقة الشفاه، تتكتّم على أسرار شرفتها، ساور جوري البيضاء فضول حيال أنبائها.. خطت إليها، أبعدت أستارَها بعد أستارِها على آخر لوح السرير الضامر، أنطقت أوّلها فقالت بردا، أنطقت ثانيها فقالت صرّا، أسرعت ردّت الأوّل وبقيت تنصت ببصرها إلى الثاني، يفشي سرّا..

أعجبها فراغ الأرض من البشر وآلاتهم وما يصدر عنهم من ضجيج يلوّث الفضاء الطاهر الرحراح، لانت لمجرّد أنّها تتأمّل تلك الكتلة النورانية تضيء وجهها الأقمر والعالم بأسره، هذا.. لا أوسم منه.

فتحة بالكونة طافرة

أقصى ما كانت تتخيل أنّ ظروفا نادرة قد تجمع لها أسبابا ماكرة فتُولَد صدفة...

صدفة واحدة، وواحدة فقط على الأرجح... على أرض ما, ربما نفس الأرض, ربما أخرى...في يوم ما, لعله قريب, لعله بعيد, وتلتقي به مجددا, لدقائق معدودة, أو لأقلّ من ذلك...

في أوقات حنينها كانت تحلم به في قلب الصدفة حرّا كما عرفته ، في أوقات العتب.. تتوقّع غير ذلك.

المستقبل.. كم شهقة، كم إغماءة، لو تُكشف عنه الحجب؟

إنّما أن تستيقظ في يوم من الأيام، تصلّي، تدعو الله فرقا ينفخ الروح في أيّامها ويبثّ الحياة في حياتها، تجلس إلى مكتبها بفنجان من القهوة، تقرأ بعض القراءات، تلقي نظرة على صفحتها على فيس بوك، تنظر في جديدها من إشعارات ورسائل وطلبات إضافة، تحبّ أغلب منشورات آستر التي تمرّ عليها، قد تترك لها تعليقا ظريفا أيضا، لا تلبث طويلا وتنفصل عن الموقع الذي يوما عن يوم تتقهقر رغبتها في استعماله. تقوم نحو المطبخ، تنتقي أكبر ثلاث حبّات بطاطا، تلتقط سكّينة وتجلس لتقشيرها بنيّة قليها لاحقا

للغداء، تعمل دون تركيز حقيقي على حبّة البطاطا تنسلخ بين يديها، وعيها استعاره عالمها الداخلي، تتنقّل فيه من فكرة إلى حلم، من حلم إلى رجاء، من رجاء إلى خشية، من خشية إلى يأس، من يأس إلى تفاؤل إلى يأس إلى تفاؤل إلى... أن يستعيد وعيَها عالمُها الخارجي.

وجهها شاحب بعض الشيء، شحوب هالات تقبع تحت نظرة باهتة.. لا ليست مريضة، إنّها قبعة البيت.

تخرّجت منذ سنوات الآن، عملت بعقد مدّته سنتان عملا لا يمُتُّ لاختصاصها بصلة، وهي وافقت عليه لأنّه إمّا ذاك وإمّا.. قبعة البيت، ثمّ لم يتيسّر لها تجديد العقد، ومن حينها لا عمل لها محدّد ولا وجهة واضحة.

يدخل والدها، يطلّ يلقي السلام بوجه طلق بشير، يصمت عالمها الداخلي فتردّ السلام خلال بسمة ثقيلة تستفيق للتوّ من رُقادها على وجهها، يقترب ويجلس إلى طاولتها، تلتحق والدتها، يخبرها أنّ شابّا تقدّم لها، يخبرها ذلك في حماسة لم تعهدها منه لمثل تلك السيرة، فلو أنّها متطلّبة وصعبة الإرضاء نسبيا عندما يتعلّق الأمر بشريك حياتها على وجه الخصوص، فوالدها ليس بأهون منها.. ماذا تغيّر هذه المرة يا ترى؟ ثم في لمح البصر ينطفئ فضولها، أصبحت شبه مؤمنة أنّ الذي يناسبها لن يعثر عليها من قريب، السابقون أفقدوها الشهيّة على الزواج، وبالرغم من أنّها لا تتذكّر أنّها ارتاحت لمتقدّم لأوّل وهلة أو صاح له رضًا مدبّرها ومستشارها الداخلي، إلاّ أنّها كانت تمنح كل واحد ما يكفي من وقت لتقديم نفسه، تسمع منه حتى لا تبقى كلمة تامّة الخلقة في رحم أفكاره، ثمّ تهب نفسها رادفا من الوقت مثل الذي جادت به على صاحبنا الأوّل، أو لعلّها كانت تؤثر نفسها بعض الإيثار قبل أن تتلفظ

بحكم الرفض. هذا يريد امرأة تعجن «كسرة» كل يوم، يضحك أنّه قد يعفيها من ذلك مرّة في الأسبوع كرم أخلاق منه! وذاك يرى أنّ استثمار حياته الأهمّ ومشروعها الأعظم الذي يتحرّق شوقا لاستهلال أشغاله هو إنجاب الأولاد، لذلك يريد منهم كثّا! وآخر لا ولن يقبل منها أن تكون امرأة عاملة! على ألّا مكان للمرأة إلّا بيتها ولا مشغلة إلّا خدمته وتربية أولاده! ويأتي من لا سلطان له على شهوانيّته التي ما عاد يستوعبها حجم جثّته، فتتدفّق مرّة من عينه، وتندفع أخرى من لسانه! ومن لا يهتمّ بمظهره، ومن لا دين له، ومن لا بيت له إلا غرفته في بيت والديه، وهكذا... وليت محاسنٌ تذوب في رقّتها وتستحي في طيّاتها العيوب.

قال إنّه كان زميلا لك في الجامعة، وكان يودّ مثل هذه الخطوة وقتها، لكنّ وضعه المادي آنذاك حال بينه وبين أمنيته أن يحقّقها، قال أيضا أنّه في نفس تلك الفترة تعرّف على شابّة فرنسية عرضت عليه الزواج منها لو يهمّه الانتقال إلى فرنسا، فوافق وللغاية أن تبرّر الوسيلة، وذهب إلى فرنسا واصل هناك تحصيله العلمي واستطاع أخيرا بعد اكتداح وإلحاح أن يكسب مصدر كسبه الذي به أصلح اللّه من شؤونه، وهو اليوم مطلّق بلا أولاد. والحق الحق يا ابنتي أقنعتني ملامحه لمّا شَجُعَ وأفصح لي عن مشاعر تجاهك لم تنهكها السنوات، سنوات قال كنتُ أتصبّر فيها على وحشة الغربة وما يكابد من مشاقّ يستدعيها تحقيق الذات هناك، بعهد قطعه على نفسه، ووعد وعدها به أنّه لو فرغ من ابتناء حالته وأنتِ لازلتِ لم ترتبطي، وهنا باح لي أنّه كان يدعو اللّه ليله ونهاره ألاّ تفعلي وألّا يجعلك من نصيب آخر فهو الأعلم بالحال والأرحم به (وابتسم والدها لأنانيّة الحبّ) فسيجعل نفسه على أوّل طائرة إلى هنا ويأتي إليّ مباشرة قبل أهله وناسه وقاطبة أحبّائه! يناشدني يدكِ..

وأحسبه أوفى بوعده وما نكث بعهده، فقد بلغني أشعث أغبر، وبالرغم من ذلك فبهيّ، وأهمّ من ذلك فمؤدّب وخلوق، ولو أنّك تطلبين أو تقبلين نصح هذا الكهل الذي لا نفع من كل هذا يرجوه إلاّ سعادتك، ولا يتحرّى من كل هذا الكلام إلاّ مصلحتك، ويعلمك مطمئنّة آمنة إذ تعلمين لن تثقلي عليه إلاّ لو ثقل حمل قلبه على صدره، وأنتِ أخفّ على روحه من روحه على جسده، فإنّي يا وردة أبيها الحبيبة انشرحت له وأراه تسرّب إلى قلبي، فرضيته لو ترضين وأعطيته لو تعطين.

كانت كلّ المؤشّرات تسرده، كل المعقولات تطمسه.. هل يعقل أنّه هو؟

أصاب السكّينة لأيٍّ، ودامت البطاطا في يدها، ستتوكّل على الله وتسأل والدها عن اسمه وتفصل بين المؤشّرات والمعقولات..

- «أُحُد» يا ابنتي، اسمه أُحُد.

شهقت السكينة على يدها وتوغّلت في إصبعها!

لقد عاد..

شعرت بالتساؤلات تُغِير على فكرها كقرويّة بسيطة غافلة ويطرأ عليها طارئ يُجمهر حولها على حين غرّة غفير إعلاميين ومصوّريهم يتزاحمون يتنافسون عليها لهم عندها ردود..

لم تقل شيئا، قالت دمعتها كل شيء.. أرادت تضليل والدها لكيلا يحزن بعد بِشْرِه، فاتّهمت البطاطا وقالت كاذبة الضحكة:

- تسبّبت لي في جرح عميق..

استأنفت وقد انقضى وقت الضحك:

- على كل حال يا أبي الحبيب.. ما كنتُ لأسخط على من رضيتَ ولا لِأحرم من أعطيتَ، الأمر لك من قبل ومن بعد، فانظر ماذا ترى، ثم انظر ماذا تأمر.

وقامت عنهم، ووالدها بحكم تجاربه وخبرته في الحياة باتت له فِراسةٌ، بَسُرَ بها أنّ البطاطا بريئة من جرحها براءة الذئب من دم يوسف، وأنّ هذا الرجل.. لم يكن بحت زميل.

***

ارتجت باب غرفتها عليها، بقيت وظهرها إلى ظهره حينا قبل أن تهدج إلى سريرها وتجلس عليه حينا آخر.. قامت إلى النافذة تفرّجت على ما تفرّجت حينا.. تولّت عن مناظرها وراحت تذرع الغرفة ذهابا وإيابا.. عادت إلى السرير مجدّدا وقد خبت للحركة نوبة الاضطراب التي أضرمها المستجدّ، فألقت بجسدها عليه.

هما أمران في الحياة، كلاهما أمرّ من الثاني.

أن تحبّ فتُخذل..

أو يعود حبّك الذي خذل، وقد انقضى الأجل.

بقيا سويّة سنتين ونصف السنة، أو ما يكاد يكون ذلك.. كانتا أحلى سنتين في حياتها، النصف الآخَر ما كان بجمال السابقتين لأنّه كان تمهيدا لخاتمة

كئيبة.. ولو هناك من تجزم بخصوصه أنّه استمتع بذاك زمن المسرّة متعتها، كي يتجرّع جرعتها من نفس كأس لوعتها، فليس هو ولا نيل.. ولكن آستر.

كانوا شلّة، تلتئم داخل قاعات الدرس، فإذا عفا الدرس ما انشطروا وساروا كوكبتهم إلى المكتبة لمراجعة ما حضروا أو تحضير ما راجعون إلى تحضيره، ثم يخرجون إلى فسيح الحرم الجامعي يتفسّحون ويقطفون للرئتين أزكى باقة هواء.. ربّما قصدوا كافتيريا الجامعة طلبوا بعض الحلوى والعصير، أو في فترة الغداء حجزوا طاولة في نفس الكافتيريا التي خدماتها تغدق أكثر من اسمها، تناولوا بعض البيتزا، وكم شهدت تلك الطاولات من مشاعر ومشاريع موثّقة بأيمان مغلّظة تحمّل الشابّان وزرها في حال عدم الوفاء بها، كأنّه في أقرب فرصة تلوح مؤاتية سيكون هو خلف زيارتها محلاّت كراء الأثواب البيضاء تنظر وتنتقي لها واحدا تصير به له، وأنّه الذي سيرفع يدها اليسرى أمام الملأ وأمامه يختم بنصرها بما معناه من الأمن والأسلم صرف النظر عن صاحبته، وأمور أخرى هي من أخوات تلك، مثل بهجة توّ استلام رسميّة الدفتر العائلي أو الوجهة السياحية لسفريّة شهر العسل، أمور.. يسهل على الرجال قولها، يسهل على النساء تصديقها، يسهل على الرجال نسيانها، يستحيل ذلك على النساء.

أحبّتا وأحبّا، كلّ واحد أحبّ الآخر على طريقته، وفقا لما تنصّه بنود جنسه..

النساء بقلوبهن الهوج، الرجال بقلوبهم أيضا، لكنّ الأخيرة عمليّة ومتروّية، تخفق كي تحيا، فإن أحبّت فلكي تحيا أيضا، على عكس الأولى، التي قد تخفق كي تحبّ، وقد تحبّ كي تموت، وقد تموت فقط كي تنتقم، فإن لم يأذن أجلها أن يستعجل بها موتها، فباقية على ملّة قلبها لا تقلّبها حتى موتها.

والعلاقة بين الرجل والمرأة كما كلّ الحياة بالنسبة للمرأة، غير منصفة.. حرب غير متكافئة فيها موازين القوى، تخوضها المرأة بأسلحة يدويّة الصنع مثيرة للشفقة، ومع الرجل القنابل النوويّة.

ثم هو يعلم وهي، عن رخاوة حسّها وهشاشة بناء قلبها مقارنة به حائط أحاسيس يعزّ أن يهتزّ، وقلبٌ حصنٌ منيع يشقّ أن يُخترق، ولكنّ هذا العلم لا ينفع، ما دامت لا تتّقيه ولا يراعيها.

أو لماذا عساه يفعل.. هو؟

مادام فضاء احتمالاته يمتدّ مدّ الأفق؟

لماذا عليه أن يقدّرها جوهرة نادرة بما أن هناك دائما إمرأة أخرى

لماذا عليه أن يتقبّل نقصها، ما دامت هناك من لا ينقصها نقصها؟

لماذا عليه أن يدفع أثمانًا ولو بخسة، ما دامت هناك من ستكلفه المجّان؟

لماذا عليه أن يقنع بفتورٍ لا تنجو من سطوته علاقة معمّرة، ما دام في وسعه دفء اشتعال نزوة غضّة؟

لماذا عليه شيء؟

عندما لا يحبّها.

في الوقت الذي تراه هي احتمالها الذي لا احتمال معه، فتُخلص وتتعامى عن العيوب وتدفع طائل التكلفة على طريقة الكاش والشيك معا وقد تبقى

مديونة، فتسدّد ما بقي من دينها على حساب ما شاء من كلّها، وترضى به وينمو الرضا نموّ العِشرة، وترضى به.. لأنّها تحبّه.

انفغر الباب فاصطفقت:

- فيم تفكّر العروس؟

قاطعت والدتها خلوتها بخواطرها.

- العروس؟ يظهر أنّك وقّعت على عقد البيع وانتهى.

أجابت جوري ساخرة قائمة عن استلقائها.

أخذت والدتها لجلوسها مكانًا قرب جلوسها:

- أوَ لم يكنساندك والدك في كل قرارات الرفض التي اتّخذتيها سابقا؟ وما ضغط ولا حاول التأثير عليك يوما؟ بالعكس، وأنا على ذلك من الشاهدين، لطالما امتدح أناتك داعيا لك وإيّاك إلى الثبوت على موقفك في عدم استعجال رزقك، بل حدث معه أن اعتذر بدلا عنك ودونما استشارتك صونا لك وحرصا عليك وصدق إيمان وقناعة مدجّجة منه أنّك تستحقّين الخيرة والصفوة.. فإن شهدناه اليوم تصرّف مغايرا وقال مخالفا فحريّ بك أن تثقي تمام الثقة، كما ثقته فيك وفي قراراتك، أنّ الطارق يستحقّ وقفة.

يا ابنتي، لو والدك يجهل قصّتك مع هذا الرجل فتعلمين بأنّني أعلمها، وكان صدر ثوبي منديلا لدموعك الساخنة على فراقه لك، لكنّني أيضا يا بنيّة أعلم من الحياة علما آخر وأشمل، وهو أفيد لك وأوجه على ما أظنّ.. أحيانا تحتاج

الواحدة منّا من يذكّرها أنّها امرأة، فظالمها مرور الزمن عليها، وأنتِ قاب قوسين أو أدنى من الثلاثين، وثلاثين المرأة غير ثلاثين الرجل، وفي هذا خير برهان على صدق و نبل مشاعره تجاهك واكتمال عقله، وإلاّ ما أعجله إليك دون دهماء المراهقات هنا، ينظر نظرة ثم يشير على يرقة منهن، وتعلمين لن تتوانى عن تلبية شبابه وجماله ويسر حاله.. وتعلمين لست أطلعك على آرائي ولا أنثر بين يديك أفكاري، إنّما أحاول أن أصنع من كلماتي مرآة تعكس لك صورة غير صورة مجتمعك الصغير.. صورة المجتمع الكبير، وهو الآخر ظالم يا ابنتي في صرامته التي كم تعوز إلى المنطق في حكمه على المرأة.. وكنت لأعاضدك عليه حتى آخر أنفاسي، وأدرأ عنك بنفسي من سهامه التي تقذف سمّا لو ما جاءنا من رضينا دينه وخلقه وأوتي من كل روض من رياض المحاسن زهرة أو أزهارا، فلمّا جاء غدت فتنة في الأرض وفساد عريض صدّه وردّه.

ثم إنّها فرصتك الذهبية أشرقت لتغيير هذه الأرض نحو أخرى نحسبها ويلائم أن نحسب أدرّ خيرا، لعلّك أخيرا تجدين لك نشاطا يعطي لحياتك معنى ويوظّف شبابك ويستغلّ طاقاتك، وكل هذه هنا يا ابنتي مؤْوُدة ومهدورة، وفي غنى أنتِ عمّن يذكّر إذ سجينة فراغ ولا تهمة. فخذي بنصيحتي أبايع بها نصح والدك، وافرقي بين عاطفة بليدة مائقة تحرّضك على الانتقام بالرفض، وأصوات حكمة تستحثّك على الموافقة للظفر، ما فات مات، ونحن أبناء اليوم، والله يغفر الزلة ويقبل التوبة، والتوبة تجبّ ما قبلها، وأزيدك ماسة من علبة جواهر تجربتي وخبرتي، لو أنّ الحبّ حلم، فالزواج واقع، وشتّان بين الحلم والواقع.. من استطاع أن يتزوج بعقله فليفعل خير له

من أن يتزوج بقلبه، يقولون «ذو العقل في راحة»، لأنّ العقل غايته مشوار مريح،: بينما القلب تكفيه محطّة جميلة..

ضمّها اليه من الخلف,اصطكّت فأوّل أنّه نجح في مباغتتها..

ألهذه الدرجة كانت غائصة في مراجعة ذكريات آنفة؟ أم هو ضوء القمر نوّمها مغناطيسيا؟ لدرجة أنّها لم تنتبه لدخوله ولا شعرت به خلفها في الغرفة؟

أيّا كان السبب، هو كذلك أجاد تقليد التسلّل على الطريقة اللصيّة.. تماما كما تسلّل يوما إلى قلبها.

وضعت يديها على يديه كي تتحرّر من طوقه:

- لقد أفزعتني..

تشبّث بها كما لا أمل أن يفلتها، ثمّ وقد اتّكأت الكثافة على خدّه على نعومة خدّها، أذلّ الحنان والليان دويّ الرعد:

- يداكِ باردتان، حبيبتي..

التفتت بخدّها أبعدته وقالت كأنّ الاتّصال انقطع بين عقلها ولسانها:

- نعم.. وأشعر بصداع أيضا..

ضحك ضحكة هادئة عاد بها بخدّه على خدّها:

- لن يبعدني عنك شيء هذه الليلة، فلتفقديه هذا الأمل الذي لا يناسب ذكاءك؛ يستهزئ بك هامسا عنّي قد أبتعد، أنا هنا حبيبتي.. من الليلة فصاعدا أنا هنا، ولن يفرّقني عنك مجدّدا إلاّ الموت!

***

على أسرّة مغايرة كان الوضع مغايرا، فلا جوار إلّا الوحدة.

ممدّدا على ظهره، متوسّدا تشابك يديه قبل وسادته، كان أوراس يحرّك تقاطع قدميه حركة ماسحتي الزجاج الأمامي للسيّارة، لعلّه يستروح، لعلّه يستريح، وبخاصّة أنّه بحاجة إلى قسط من الراحة، ليس فقط لأنّ يومه عانى من فرط الحركة، بل أيضا عليهم غدا النزول بصناديق الغلال إلى باعة الخضر والفواكه في وسط المدينة.

النعاس يعصيه، رغما عن بطارية جسده الفارغ شحنها..

هذه المرّة الثانية التي يتزوّج فيها أخوه الذي يصغره، وهو على قدر اغتباطه لأجله يغبطه، إذ هو بالمقابل ما له حتى سراب المشروع، فقط أمل أشدّ سقما من أن يرفع معنويّات صاحبه أو يعود عليه ببعض الابتهاج أو الانشراح، يا ليته مات وخلّصه! حار فيه بكم روح هو؟ كيف ينجح كل يوم مرة أخرى في رفع تحدّي الحياة والنجاة من موت محتّم؟ بأيّة قوّة يتمسّك بالحياة فيه؟ هل هي رؤيتها لا تزال عزباء تبعث أملا في هذا الأمل؟ أم هو قلبه، يستجير بهذا الأمل من ألم اللا أمل؟ ولو أنّ تعريف اللا أمل هو امرأة مواظبة على رفضه منذ سنوات.

كم حاول أن يلوذ بالفرار من سجنها، لكنّ دوريّة شرطتها تعود تلقي عليه القبض دوما، ودوما تعود تزجّ به، حتى الذي جاؤوا عليه أمل نقيض الأمل فيها: أمل تخطّيها.

فكّر في الزواج من أخرى، أيّة واحدة أخرى، لا يهمّ.. ما دام ليست هي، وهي واحدة، فكل الأخريات واحدة. معظمهنّ كنّ انتقاء والدته، فتيّات جميلات ممتلئات، بالبيت ماكثات، وبأشغاله عالمات، وفيها ماهرات، لخدمة الزوج مهيّآت، وبحيل إرضائه فقيهات، ومع ذلك شيء ما كان ينقص ذاك الكمال.. أطباق وإن دسمة فلا ملح فيها، وهو يعرفها جيدا.. من مرّدت عليه حُليمات ذوقه.

إنّه خُلُق الحبّ..

من ذاقه انتهى أمر قناعته، ما دونه لن يفي بالغرض مجدّدا أبدا.

واحدة.. أعجبته مرّة فيها خصلة أو اثنتان، ورضي منها ما بائنٌ من أخلاقها، ولا يتذكّرها لهذه المحاسن، بل لأنّها التي يعتبر نفسه خان حبّه بأن أوقفها ظهيرة كان فيها في قيلولة أمله في آستر، واقترح عليها شراكته.. كانت لحظة متعبة أو قل منهكة أو قل خائرة، فيائسة فمتهوّرة فمجنونة.. ومن في حصن من هكذا لحظات ضعف في الأوقات العادية؟ فما بالك بالأوقات العصيبة.. ساعة انهار فيها الانتظار لزلزال الزمن ووطأة الصبر، وبدا الأمل يشخر أنفاسه الأخيرة..

قليلات اللواتي قد يزهدن في رجل كأوراس..

نظيف الحاوي والمحتوى، حارسه الشخصي الذي يتقدّم سيره في الطرقات أخلاقه.. متوسّط القامة إلى طويل، متوسّط الجملة العضليّة إلى قويّ، أسمر البشرة إلى قتام مكتسب، ذو لحية قصيرة مشذّبة مهذّبة تحيط ابتسامة معدّلة نقيّة ناصعة، عاليها تحديقة فحيمة صارمة حادّة، شعره ليس بالأملس، لكنّ عنايته به أحنت سنابله الدّجاجية.. مرتّب الهندام في بساطة معقّمة، ضعيف الضحكة قويّ الحضور، طاهر الأقوال طيّب الأفعال، ملتزم بدينه حريص على سمعته، رجل في نصب مستمرّ لا يقرب الراحة إلاّ عابر سبيل.. لا يكلّف في مأكله ولا يتكلّف، يطلب رضا والدته ويحنو على أخواته، ينتشر كل يوم بعد صلاة الفجر إلى أرضه التي هي كل تركة أبيه وأمّه الثانية بعد أمّه.. لقد نذر لها أياديه وهي شكورٌ لا تنكر الجميل ولا تنسى الفضل، هي قلّما خيّبته.. اضطرّ مرّة واحدة في حياته أن يبتعد عنها، وكان ذاك لأجل تحصيله العلمي العالي، فاختار وما احتار «العلوم الزراعية»، هكذا يتسلّى بسيرتها بينما الفراق، ريثما العناق.

هو الفلاح، جسدا وهمّة.

بعد عودته فلاّحا أكاديميّا، تسخّر لأرضه كلّية، وقتا وتفكيرا وجهدا، وعمّاه ومن أبنائهم وآخرون وظّفوهم معهم، وجميعهم صاروا يعملون تحت إشرافه، حتّى صيّروها جنّة صغيرة يحظّر دخول الهمّ إليها.. لعلّها التي وجد في حبّها العزاء عن حبّ آستر، وشغلته عن مميت التفكير فيها. كما بنى لاحتمال زواجه الذي احتمله أمله، بيتا صغيرا غير تامّ تماما، أجّل رتوشاته الأخيرة لحين يتجسّد الأمل، اتّخذ أرضيّته سقف بيت والدته، على هذا النحو لو تزوّج تبقى هي وأخواته على عينه دون أن يسلبهنّ -ولا زوجته المستقبليّة-

حياةً هنيّة كدرُ المناوشات التي أشهر من نار على علم في هذا السياق، وبهذا الحجر كان له عصفور ثان: بقاؤه على مقربة من أرضه، ورشة عمله.

وافقت الشابّة إذن، ولا أهلها رفضوا، بالعكس حل أوراس أهلا ووطئ سهلا وحظي باستقبال حارّ كالتكريم شجّعه على المضيّ قدما، إلى جانب أقساط من المنطق كان يتكرّم بها عليه عقله المدبّر أن في آخر المطاف لا يجدر به أن يبذّر شبابه على انتظارلا يُثمر.

نزل إلى المدينة، إلى المكتبة أين تعمل آستر، ركن قريبا ينتظر موعد نهاية دوامها وساعة خروجها المسائي، وكانت ستحلّ من قريب.

لأوّل مرة تمنّى لو يمتدّ زمن ذاك الانتظار إلى المالانهاية.. أن يبقى هناك، في انتظارها.. إلى الأبد.

هذه المرأة الجديدة ستمنحه زواجا.. واقعا، والواقع مقيت.. لمَ الكذب؟

آستر أهدته حلما، والأحلام مثالية الجمال.. لمَ الإنكار؟

والناس أصناف..

هناك من يفضّل أن يدفع للواقع الكثير ويتلطّخَ بوحله وأدرانه في سبيل نتفة متعة لا تلبث تنقضي مخلّفة تبعاتها.

وهناك آخرون.. لعلهم مخطئون، لعلهم صائبون، لكنهم يعيشون فوق سحب الأحلام، منها يطلّون على الحياة، فتنظر أوحالها وأدرانها إليهم بحسرة، لا تستطيع أن تلوّثهم، على قدر ما تشتهي ذلك لا تستطيع.. هم لا يريدون منها

شيئا، فبماذا تغريهم؟ هم ينظرون إلى السماء فوقهم.. لن يدفعوا شيئا، ففي المتعة الحقيرة هم زاهدون.

أراد أن يودّعها بعينيه، ألاّ يفجع قلبه بعتمة انقطاع تيّار أملها مبادهةً، هو الذي تعوّد النبض على أنوار صورتها تتأرجح بين شريانه والوريد، أن يراها مرّة أخيرة، فيها هو حرّ، فيها هي حرّة، ويحلم.. ويطلق العنان لأحلامه، فلتتطلب! ولتتمنّى! سيدلّل قلبه بحلم دافئ رقيق ناعم، ويداعبه للحظات لا تبالي بالواقع، لا تكترث بالمستحيل، عنوانها «كلّ شيء ممكن»، مضمونها ملخّص عن حبّها له لا عن حبّه لها فذاك غير قابل للتلخيص، وأجمل أحداثها أنّه هنا لا للطلاق بل للتلاق، سيصطحبها إلى عديد محلاّت، ستركب سيّارته لأنّها زوجته شرعا وقانونا والتفصيل الأخير الذي لا يزال يفصل بينهما مقرّا هو عرسهما القريب، وها هما يعملان على التحضيرات له..

خرجت آستر فخرجت روح الحلم الجميل، نظر إليها فخارت كلّ قوى عزائمه على استبدالها، ما كان نوى أكثر من وداع بصريّ وعن بعد، ثم قفز بحاجة إلى قرب أخير، «أخير وفقط!» توسّل ذاته، سيخبرها، ليتها تغار، لعلّها تلين.. من يدري؟ ربّما كلّ شيء ممكن حقّا..

لمحت ترجّله فابتسمت متفاجئة، شعر بسعادة ملأت عليه أركان صدره لمجرّد أنّه وقف بين يديها، سعادة عاتية طاغية لم ترم مكانها إلاّ وقد سحقت كل حماسة المشروع كفيل تحدّته نملة، وجعلتها تفرّ بعيدا بعيدا ركضا، كضبع لاح له السبع.

آستر الزهرة.. ليس فقط نسبة إلى اسمها.

طويلة القامة في اعتدال، تتوسّط مجال بنية الأجسام، فلا هي في تقتير ولا هي في تبذير، سمراء إلى نور ككوب من الحليب بملعقة قهوة، أجمل جمالها ابتسامتها الملائكيّة الواضحة الوضّاحة التي يشرق لها كلّ وجهها، وأغمض ما فيها نظرتها الوقّادة، يعلوها حاجبان بريئان بعفويّتهما. أنف كليوباترا، طويل بعض الشيء، كنافورة خيلاء كاذبة تسقي ملامحها.. ضعيفة الصوت مؤدّبة اللفظ، خجولة الطبع رقيقة الحسّ، واجتمعا لها وقلّما يجتمعان، ذاك الضعف الظاهري إلى جانبه قوّة في الشخصية وجرأة في الأفكار، محتشمة الزّيّ فريّته، فليس نادرا ما استهترت بقواعد الشياكة ومزجت بين رياضيّ ورسميّ أو خلطت ألوانا متنافرة، كان شعارها «لكم موضتكم ولي موضتي»، ومع هذا لا تستهجنها العين بل تستملح تصاميمها المناوئة للتّكرار المملّ والتي تنمّ عن عبقريّة ما خلف الأستار. مختلفة.. في مشيتها الرياضية وحركاتها البطيئة، في آرائها ونظرتها للحياة، في رقيّ تصرّفاتها، فالجالس إليها برهة لا يغادر وما انقشعت له روح الأميرة فيها.

ولو أنّ الأمر غير قابل للتصديق، فإنّها ومع كلّ هذه الثروة شكلا ومضمونا، ما كانت محفوفة بكثيف إعجاب -بتهميش إعجاب أوراس طبعا لأنّه وحده كثيف إعجاب- ذلك ببساطة أنّ امرأة مثلها مكياجها ونظافتها وأناقتها تواضع مرتّب، وجمالها الرّوحي يفيض على جمالها الماديّ لا برقشتها الماديّة تمحق جمال روحها، ومركز حلاها قلبها ورأس مالها أخلاقها، وعقلها يشرف على أنوثتها لا أنوثتها تودي بإنسانيّتها.. هذه لا ينتبه لها رجل ماله من الرجولة إلاّ جرامات أو ميلي جرامات، تلتقطه فيكاد يتوسّل الفناء عليها أو في سبيلها ألوان الوجه المحتدّة وتضاريس الجسد السافرة، هذه من يراها فلا يرى

بعدها، رجل من العيار الثقيل.. لبّ له أن يستأصل الجمال النفيس، من وغل وإطراق الحياء الحريص.

أخبرها فطأطأت استياءها وهنّأته، وهو جذِل باستيائها كما لو كان موافقتها، هذا يعني أنّ إصراره بدأ يحرّك الصخرة عن فتحة الكهف!

عاد إلى البيت وفي طريقه حسم أمره: إمّا هي.. أو لا أحد.

لكن هي.. الأدعى إلى العجب من أمر أمله أمر أملها؟ يعلم أنّ عهد نيل ما ولّى بعد، وإن يخشى فأن تكون نصّبته ملكا سرمديّا.. عجزت كل الصفات التي ينطوي عليها معجمه اللغوي عن وصف ولائها.. هبنّكٌ أم هبنّق؟ وهوف أم يهفوف؟ كيف تعقل تضحيتها به، بنفسها! في سبيل من ضحّى بها؟ أيّة بلهاء تعيش على رجل ماتت عنده؟!

أخرسه سؤال ردّ على آخر سؤال: وأيّ أبله يعيش على امرأة تعيش على رجل ماتت عنده؟

***

تقلّبت عن اضطجاعتها على جهتها اليمنى إلى اضطجاعة على الجهة اليسرى، ولا ناسبت الوضعية الجديدة بأكثر من الوضعيّة القديمة، جرّبت وسط الوضعيّتين، لا جدوى.. وتعلم أنّها كلّما ضغطت على نفسها كي تنام أحجمت الغفوة، لذا قامت دون مزيد من المقاومة المسيئة لها، شغّلت حاسوبها الصغير فأضاء وجهها وركنها من الغرفة التي أمست غرفتها الخاصّة مذ تزوّجت

أختها الكبرى منذ سنوات.. طلبت فيس بوك، أدرجت الإيميل وكلمة السرّ الخاصّين بها، كانت النت بطيئة غير أنّها أمكنت من الاتّصال في آخر الأمر.

أوّل الذي أَلِفت فعله هو النقر على خانة البحث، فعندما تستعدّ تلك لتلقّي الأوامر تنقر ثانية على الحرف «ن»، كي تظهر على رأس القائمة المقترحة.. صفحة نيل.

صارت عادة ملازمة لاستعمالها فيس بوك، والعادة متى دخلت تاهت عن طريق العودة، هو لا يغيّر صورته، ومع ذلك هي لا تملّها وتحدّق فيها كل يوم عددا من المرّات غير معقول، مقابل مرّات قلائل لم تزرها فيها، مرّات كان يستفيق قلبها من غيبوبته، يرى ما كائن وما كان ويعي، فيشعر لذلك الإدراك بحزن لا يلبث يصرعه مرة أخرى في غيبوبة أخرى.

التعلّق معضلة.. فلا أحد توصّل إلى اكتشاف التفاعل الكيميائي الذي يؤدّي إليه أوّل مرة، ولا كيف يتوضّع على القلوب ويسكن الأرواح وينتشر في العقول ويسقم الأجسام ويضني الأيّام؟

كلّ الناس يؤمنون بعلل الجسد، والبعض منهم يؤمنون بعلل الروح، ولا أحد يؤمن بالحبّ علة للقلب.

ومن أشدّ نوبات الذعر التي تتذكّر انتابتها يوما، لمّا أُطلقت إشاعة على ذاك موقع التواصل الاجتماعي في شكل رابط يزعم أنّ تفحّصه يكشف أكثر المتردّدين على صفحتك، كانت على يقين أنّه لو صدَق الزعم فستكون على قمّة قائمة المهووسين، دون ندّ تمكّن من تحقيق ربع الذي حقّقته على صعيد الاهتمام به، هي تستعمل اسما مستعارا ورغم ذلك تخشى أن يسقط القناع لو

فُضح أمرها، وتتهيّب حتىّ الشحوب احتمال ذلك الإحراج الجمّ الذي من شأنه ازدراء عزّة نفسها.

قد تكون آستر أحبّت نيل بما لا يقلّ عن الجنون الذي ألمّ بقلب جوري تجاه أُحُد، أمّا كيف تعاملت الصديقتان مع الهجر فلا اتّفاق، إذ فيما كانت جوري أغلقت باب تاركها وتتناسى بمثابرة ساعية إلى النسيان حتّى تكلّلت مجهوداتها بأن بلغت مرحلة مهمّة من الاستغناء، كانت آستر تحيا على أمل ممسوس، أن يعود من سامحت غدره، مختلقة له من الأعذار ما تقنع به نفسها أنّه اضطرّه إلى تركها، ثمّ تخترع مستعينة بفسيح خيالها سببا تراه ممكنا وهو غير ذلك، سيشدّه من تلابيبه، ويجرّه إليها مرّة ثانية، وهنا الفرق بين شخص آستر وشخص جوري.

جوري الوردة، بسحرها.. بأشواكها.

يقولون أنّ الإنسان عندما يولد فإنّه يخرج إلى النور، وهو في الحقيقة يخرج إلى الظلام.. ظلام ظلم هذا العالم الدامس.

وُلدت جميلة كدمية، حلوة بيضاء كقطعة سكر، أثار رُوَاء وجهها الصغير لغطا حولها وجدلا، بين من يريد لها «تاليا» على أنّه نور الجنّة، وبين من يفضّل «رسيل» على أنّه الماء العذب، وبين من يقترح «رودينا» على أنّها السحابة التي أظلّت الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، حتى فصل والدها في اسمها قائلا: «بل هي جوري، الوردة الدّمشقية أجمل ورود العالم،على بركة اللّه».

ولم تزل الوردة تتفتّح يوما عن يوما، تمتصّ الماء فتأخذ من سَلسَاله وزُلالِه، وتحتسي الهواء فتصيب من نقائه وصفائه، وترتشف أشعّة الشمس فينتقل إليها من توهّجها وتألّقها. ولكنّ جمال الغلاف وجمال العنوان لا يصنعان بالضرورة جمال الكتاب، والكتاب مؤلّف من ثلاثة فصول، فهناك العقل وهناك القلب وهناك الروح، وقد كانت جوري كتابا جميلا: غلافا وعنوانا وفصولا.

لكنّ الجمال والكمال لا يستندان كلّ منهما ظهر الآخر لوصف، عدا وصف الخالق العظيم، لذا كان للوردة شوكة شرسة بتّارة.. فكانت جوري كالفيَلة، لا تنسى أبدا من يؤذيها وأذاه.

آستر كانت بتول القلب قبل وسامة نيل، لم تتخيّل ولا خطر على بالها أنّها قد تصادف مثله.. أقلّ من ذلك، أنّها قد تكون الطرف الآخر لقصّة حب، هو طرفها الآخر.

فصلت الاتصال وأطبقت الحاسوب، عودة أُحُد أعطت الحقّ لأحلامها المخبولة وأملها الممسوس بألا شيء مستحيل.

لا شيء مستحيل.. نعم أم لا؟

لا.. هناك أشياء كثيرة تستحيل.

نيل بات في وضع حسّاس لا يحتمل جرأة كالتي اتّسم بها موقف أُحُد، ففكّ الرابطة الزوجية أكثر سهولة وأقلّ أضرارا من تفكيك الخليّة الأسريّة، كان التحق بأُحُد وارتبط هو الآخر بفرنسيّة الجنسيّة لكن من أصول مغربية، انتقلت عائلتها إلى فرنسا بها في بطن أمّها فأكسبوها بميلادها هناك الجنسيّة،

وهي من ثمّ أكسبتها نيل بزواجه منها. وللعقليّة الشرقيّة خصائص لا يذيبها ولا حتّى روح الملح الغربيّ، فمثلا لا انفصال للفتاة حتّى اتصال آخر، ولا اتّصال ولا تناسل، وهكذا بمجرّد ما انفصلت زوجة نيل عن عائلتها واتّصلت به، نام واستيقظ فوجد نفسه أبا لابنتين، بينما زوجة أُحُد الفرنسية الخالصة، لم تنجب له، وهذه ثقافتها وثقافة شعبها أن لا بدّ من مسافة أمنية بين خفّة الثنائية وثقل العائلة، أي على الزوجين أن يمنحا نفسيهما فرصة التعرف الجديد الذي عن قرب وهو غير المعرفة الأولى التي كم تخفي من عيوب وتتستّر عن حقائق، قبل أن يقرّرا ما إذا كانت علاقتهما متينة كفاية، وتجلّي تفكيرا صائبا، فعندما جلّت المساكنة نقاط الاختلاف والتي لجسامتها سرعان ما هوت بالألفة، لم يضطرّ أُحُد ولا زوجته الفرنسية إلى تجشّم شقاء العيش مع شخص لم يعد مناسبا فقط لأنّه متورّط معه جينيّا في نفس المنتج، كما كان الحال بالنسبة لنيل وزوجته التي «ربطته» كما تكيد عقليّتها، بتينك البنتين.

اضطجعت مرّة ثانية على جنبها الأيمن، جعلت كفّها تحت خدّها، هناك أخيرا بدأت حاجة الجسد إلى أن يهمد في ذلك الوقت المتأخر تجثم على سرعة الطرف. ما قبل أخير ما فكّرت فيه أنّها لم تغسل وجهها من كريم الأساس، وخبيرات التجميل يتّفقن كلّهن على ألاّ أسوأ لشباب البشرة من ذلك، ما دامت مساماتها تتفتّح ليلا كي تتنفّس فلا ينبغي أن تجد ممرّات الهواء مسدودة، شعرت ببعض العتاب خاصّة وأنّها تجاوزت الخامسة والعشرين، وبعد هذه السنّ لابدّ من عناية خاصّة لمن تطمح إلى شباب معمّر. أهملت الموضوع في الثواني القلائل اللاحقات.. ما أهمّيّة أن تتنفّس البشرة عندما يكون القلب مخنوقا؟

أخير ما عبر شاشة ذهنها، كالعادة.. صورته.

أُرخيت الأشرعة بمجرّد ما ارتخت، أبحرت السفينة زاجّةً به وراء ظهرها، شاطئ الواقع الكئيب ينتحب.. في تلك الليلة أيضا حلمت به، مّن حتّى في أحلامها أشعب الودّ.. تراه دائما يرمقها من بعيد بنظرات تجمّد قذفة الماء في الهواء إذا ما اعترضت سبيلها، نظرات خلفها قلب خاو إلاّ من لامبالاة، نظرات ميّتة قاتلة.

***

فرّت إلى إعراضها وحضنت جسدها، تخشّل بصرها مستكينا:

- أظنّني بحاجة إلى أن تمهلني..

ضجر شهيق أُحُد كما زفيره، ارتمى على حصّته من السرير، أحسّ بأنّها تحالفت والتعب عليه ولن يسمحا ببعض طوبى الدفء تنسلّ إلى قلبه في تلك الليلة الباردة.

تظّهّره جالسة، تتمسّك بالدّثار عليها، تشاهد النافذة لا تنظر إليها، كما لو كانت تعرض مسلسلها الأمريكي المفضّل، ولعلّها كانت تعرض خيرا منه.. القمر مال عن آخر مواقعه، ما كانت تمكن رؤيته إلاّ للملتصق بتلك النافذة-الباب، وها هو ذا يختلس مراقبة انضواء انزوائهما في حياء، فلا يواجههما إلاّ حينا ثمّ يولّي هاربا كطفل صغير يلاعَب الغمّيضة، يستر تطفّله خلف الكومة البرتقالية التالية من قطعان تلك المتنقّلة، التي داع إلى العجب من أين عائدة وبأيّ سرعة ركضت ممزّقة المسافات على براري السماوات كي تحلّ فجأة من

جديد وتلبّي نداء ذاك الفضوليّ الخجول آذنة له أن ينشرح ويغتبط ويطلّ خلف أسوارها قدر ما شاء.

اختفى القمر أطول ممّا عوّد..

ماذا جرى له؟ هل هو بخير أم أصابه مكروه؟ أم تلك السحب نصبت له كمينا وهو وقع في شراكه؟ أم لا داعي للقلق، فقط رومانسيّته الزائدة تأذّت من ذاك الإزورار عن المودّة والتجاف؟

قام أُحُد، قاطع عتمة الغرفة، باتت موحشة أكثر ممّا يُحتمل بعد أن اختُطِف القمر وصمتت جوري.. مشى إلى جهة حصّتها من السرير أين لا تزال جالسة ولا تزال مطرقة، جلس إلى جانبها، التفت إليها فإذا بعض الدموع ساقطة، اغتمّ لمرآها تنحدر غمًّا أنساه أينه وخيبته، ناشد مكروبا:

- هل لي بيدك حينا؟

مزيد من الإعراض غير لائق، أعطته مسألته..

أمسك يدها برفق، جعلها على صدره تماما فوق قلبه وقال:

- ألا تشعرين به؟

كاد يذرف للسؤال..

وهنت يدها في يده فوق صدره، ارتدّت نظرتها الجريحة عن نظرته الكسيرة وعادت أدراجها إلى نافذة عاد عليها القمر أدراجه، تباعدت شفتاها أخيرا:

- لا.. لا أشعر به إلاّ ينبض لحياتك.

تركها تستعيد يدها، تنهّد وقام إلى النافذة يفكّ أزرار الكمّين، قال وقد انتقل إلى الأخرى على طول القميص:

- التجارب الجديدة دائما..

قاطعته جوري على شفا الاستعبار وقد وقعت في حفرة الاقطرار:

- الجديدة؟ الجديدة؟ ما الجديد عليك؟

دافع عن نفسه على حافّة أن يقع في نفس حفرتها:

- أها! وطبعا هذا الذي يحنقك أنتِ! تعلمين ملابسات تلك الزيجة وأغراضي منها..

ردّت عليه دموعها:

- كذّاب! أنت مجرّد مخادع منافق، ولولا أنّني صرتُ أعلمني الآن أُمِرَ بي الملَك أن يكتبني شقيّة وأنا محض مضغة في رحم أمّي، لما وجدتني زوجة لأكثر رجل عذّبني وكنت قبله أكثر امرأة أحبّته!

هبّ إليها تغطّي وجها يمطر بمخاوفه على أرض من جليد، أراد أن يضمّها فأقصته وارتمت على المخدّة تبكي انفعالا عاطفيا لم يزل يتجمّع ويتكدّس منذ الصباح حتّى فجّرته ذكريات الأسى.

حطّ بيده وجلة على كتفها وراح يمسح ذلك الحيّز المتقلقل، هو يعرف طبعها كما لا يجهل غلطته:

- حبيبتي.. لولا أنّني تزوّجت منها تلك ما كنت حقّقت شيئا ممّا حقّقت، ولا أنا الذي أنا الليلة وأرجو تفخرين به، ولا كنّا منتقلَيْن إلى باريس.. كان لا بدّ لي من خيار أتّخذه، أبقى هنا معك نتشاطر حياة لا نلبث نكفرها ثمّ تفرّقنا تراكمات الهموم وضنك العيش، أو أسافر أبني حياة سترين كم استحقّت عناءك والصبر، سأعوّض لك حبيبتي عن كل ملّيم منهما.

مال على ظهرها بصدره فدفعته عنها مجدّدا قائلة في إكبار ثمّ احتقار:

- لماذا لم يهرب أوراس؟ أم أنّه لا يريد حياة كريمة هو؟ لقد بقي من أجل أمّه، من أجل حبّه، من أجل أرضه.. أمّا أنت وذاك مثيلك نيل ففضّلتما مخادع النساء والنوم على جيوبهن الناعمة على أن تحملا الرَّفش وتصارعا به وعورة الأرض وخشونتها، وقادما جِد لنفسك لمثل نوبة حرقتي هذه التي أنت وراء دائها أعذارا أخرى لها أن تطفئ، كأنّه قدرك أو قدري نادى أحدهما على الآخر أو أمر به أو لا أدري ماذا قد يكون غير هذا، لكن أرجوك لا تعد على مسامعي من الذي كنتَ تتبرّأ وتستغبيني به قبل قليل، أنت لم تحبني إلاّ كما ليس الحبّ حقّا، كما لو أنّك أحببت سترة أو ربطة عنق رأيتها على فاترينة معروضة، لكنّك ما كان معك حقّها ادّعيت، فذهبت زاعما إلى جمعه، ثمّ لأوّل خطوة ابتعدت بها نسيت، وللثانية نسيت ثانيا، وللثالثة نسيت ثالثا، وهكذا دواليك حتّى عندما بلغت خزنتك ما كان بقي منها في ذاكرتك عالق، ولا حتّى أنّك اشتهيتها، ولا حتّى أنّك رأيتها..

نهض أُحُد في حال يرثى لها، كان يتوقّع بعض جفائها، بعض غضبها، لكنّه لم يرغب في اعتقاد حالة دمار شامل كتلك.. فجأة هو من صار بحاجة إلى تأجيل لقائهما، قال وهو ينوي ترك الغرفة:

- لكِ ليلتكِ.. لكن قبل ذلك أريد أن ألفت نظرك إلى تحليلك للأمور كم يفتقر إلى المنطق يا ابنة الفلسفة، فلو ما كان يعنيني أمرك استئنافا لِما كان، وأكنّ لك من المشاعر إسهابا لِما كائن وكفافا لما سيكون، فماذا غير هذا أرغمني على العودة إليك وتكبّد عناء كلّ ما تكبّدت عناءه في سبيل إنجاح وصالنا؟ هل تذكرين يوم تقدّمت لك؟ يوم رمقتني بنظرة شزراء، ثمّ وقفتِ استأذنتِ وغادرتِ مستعجلة وكلّك سآمة، بل أظنّني سمعتك تتأفّفين وما أحببت من سمعي أن يؤكّد لي ما سمع، حتّى صرت أعاتبه أنّه وإن يكن على حقّ فأنتِ على أحقّ، وأنّني دونكما المخطئ.. رضيت منك يومها أن تسخطي على أزهاري لكِ في يدي.. لماذا؟ رضيت منك الفظاظة بعد ذلك والغلاظة، والجفوة والقسوة والنّأي واللأي، لأنّني لم أسامح نفسي يوما على استبدالك، ولو أنّه جسدي مستبدلك لا روحي.. لأنّني أؤمن بالفرصة الثانية، لطالما آمنت أنّها من حقّ كلّ مخطئ أن يتصحّح كما من حقّ كلّ مذنب أن يتوب.. لأنّني أحبّك كما الحبّ، الحبّ! ماذا غير مثله يفعل بمثلي هكذا؟ بالله عليك ماذا؟ ها؟ ماذا؟ لم تلبُقي حتّى وتمرّري لي ليلة عرسي على خير، ثمّ لك ما بقي من عمري وهبته لك.. اسحقيه إن شئت!

دوّت صيحة باب الحمّام متأوّها لجلدة ردّه مطبقا العنيفة، بما أفزع جوري بيدها على فمها.. خمد بركانها وانطفأت ثورته، فبدأت تعود إلى رشدها وتعقل، لبست رداءها الحريريّ الزهريّ الذي كان نائما داخل حقيبتها ينتظر

فراغ ثوب عرسها من مهمّته قبل أن توقظه ويحطّ على ظهرها خليفة له، أحاطت بحزامه خصر إجاصة لحيمة، شدّت عليه الوثاق، قامت إلى المرآة، هجاها رأيها فيها حدّ التأفّف، لقد أفسدت لوحة مكياجها بمياه دموعها، هرعت إلى الحقيبة ثانية استخرجت علبة المناديل المبلّلة المزيلة للمكياج، ومن تلك أسرعت، عادت بمنديل إلى المرآة راحت تعيد به بحركات خفيفة تنمّ عن خبيرة براءة نظرتها الكراميلية فصفاء وجهها القطنيّ ملمسا ولونا، حتّى برقت البرتقالات المتناهية الصغر المبعثرة بجود على ضفّتي أنفها كحبّات نحاسيّة ملمّعة أو نجمات ذهبيّة، فكّت تسريحة شعرها الأصهب الناري فانسدلت ألسنته المتموّجة في حيويّة تتسابق على ما بين كتفيها حتّى قبّلت أطولها العصعص وارتدّت لها جميعها تلويها مستعجلة، صلبتها مستعينة بأحد دبابيس التسريحة على ما فوق القفا بقليل، ثمّ تحوّلت ببصرها عن وجهها تعكسه المرآة أدبر عن أحزانه إلى السرير، تراءى لها حزينا عاتبا، كأنّ جميع أضواء ملعب مسلّطة على فراغ ظهره، وكأنّ الثلج يتساقط على فراغ ظهره.. ثلج الهجر.

شعرت بقرصة الذنب في قلبها، إنّها المجرمة لا أُحُد، أشفقت على آخر صورة له، لقد كسرته..

أنّبها ضميرها واستلمتها نفسها اللوامة حتّى جزعت لأحكامهما على تصرّفها من مكانها نحو إخلاء الغرفة، مشت صوب الحمّام متردّدة خائفة نادمة، خمس دقائق مرّت، لعلّها عشر.. لماذا يحتجز نفسه هناك؟ لكنّها استرجعت للحال: وهل يوجد من هناك آخر؟

كانت الساعة في الرواق تشير إلى الواحدة صباحا وتلك الخمس دقائق مضافة إليها، في مثل هذا الوقت هي عادة ترقد بسلام، وها هي الليلة لم تعد وريثة عرش حياتها الوحيدة، بات من الضروري أن تتعلّم كيف تحافظ على توازن زورقها بتجذيف جديد معها عليه.

طرقت الباب بلا يقين قائلة في صوت مرتحل:

- أُحُد.. حبيبي أنا آسفة.

لكنّها قبل أن تتلفّظ بحرف زائد، اندفع من معزله ثائرا كإعصار، ممطرا كعاصفة هوجاء لشديد ما بلّل نفسه، ارتعبت لرؤيته يتقاطر غيظا كما ماء في آنٍ لا آنيْن، فغريب عنها هذا الوجه منه، لقد تغيّر.. يظهر أنّ تلك السنوات بعيدا عنها لم يكن نزل فيها ضيفا على حالة النيرفانا، كما ظنّت.

لم تلحق به خشية أن يصدر منه غريب عنها آخر، بقيت في الرواق تتسمّع على استغاثات حقيبته تشتكيه يبثّ الفوضى في محتواها المرتّب ويخلطه خلطا بحثا.. عمّ يبحث؟

صمّ سمعها عن أيّة ذبذبة صوتية دخيلة على أنين الحقيبة المسكينة البريئة صُبّ عليها الغضب الجمّ وهي ليست في شيء، وقبلها على الباب الغافل لا يقلّ عنها مسالمة، لحسن حظّها هما جماد وإلاّ كانت حملت وزر جرمه في حقهما، شجّعتها ذكرياتها الجميلة معه على الإقدام، مهما تغيّر.. هي تعرف معدنه.

لمّا أطلّت كان هو فرش سجّادا صغيرا قِبْلَتُه النافذة-الباب، وكبّر للصلاة.

اطمأنّت عليه، روحانيّاته ستداويه من لسعتها، استحت من خالقها الذي بجميل أفضاله ردّ إلى قلبها السقيم من أسقمه يشفيه به شفاء لا يغادر سقما، وهي ما شكرت إلاّ كما الجاحدين وناكري المعروف والجميل، أعتقت مثوله بين يدي من سيرحمه لا محالة ويجبر خاطره الكسير من قيد تحديقها، وأسرعت إلى الحمّام توضّأت هي الأخرى، عادت إلى باب التوبة اخترقته كما لو كانت من عائلة الظلال، استنبطت من حقيبتها عباءة صلاتها غطّت بها رداء العروس، ومن على آخر لوح السرير الصّفر التقطت وشاح والدتها ضربت به على جيبها، وذهبت جاورت بسجّادها الصغير كان رافق العباءة في خروجها، جاورت به سجّاد زوجها الجالس بكفّين يرجوان السماء.

لم يلتفت إليها، وهي لم تفهم.. أخاشعًا صار أم عاتبًا لا يزال؟

عاد البدر إلى الأسر.. ما كلّ هذه الغيوم المتوحشة؟

يا لها من ليلة موحشة.

ارتطمت بعض أنواره الفارّة من قضبانها بوجه أُحُد، وعيناه مخضلّتان بالدموع، عادت تحديقتها أَسرته، بعد أن أسرها جمال لوحة به الأنوار الناجية رسمتها، نسيت أنّه في قعرها حزين، رأت وجهه في مواجهة البدر بدرا ندّا قويّا حتّى تراجعت عن نتيجة آخر مقارنة، إنّما بدرها الأرضيّ أوسم من ذاك السماوي، مسح هطول دموعه فانتبهت وادّكرت بعد أمّة أنّها مجمّعة سحبها، أنّها وإنْ أسيرة هي الأخرى.. فآسرة هي الأخرى.

شعرت لمنظره بروحها يُقام عليها حدّ الثيّب الزاني، اقتربت بكفّها من لبدته فإذا هي من ماء.. أبعد خدّه عنها وبدا هجر النظر إليها وهمّ بالقيام عنها،

فتعلّقت بذراعه وقد اغرورقت عيناها بالدموع، قالت تطمع في أن يتجاوز عنها وتطمح إليه:

- فلنصلّ، عسى يذهب الله عنّا ما نجد ونكره.

لم يقل شيئا، لم يبتعد أيضا، فقط كبّر، فكبّرت من ورائه.

سلّم فسلّمت، فقامت إلى جنبه جلست، ضرعت إليه أن يضرع بهما إلى الله، انسلّ من صمته الذي كم زادها غمّا، وقال كأنّه أبلّ بعض الشيء ممّا تسبّبت له به:

- يا ربّنا.. إنّك قلّبت قلبي صوب هذه المرأة، ولا أحسبها إلاّ قلّبت قلبها صوبي، وانقلاب القلوب شديد، ونحن ضعفاء.. يا ربّنا، كما جمعت بيننا في الحلال لك الحمد، نعوذ بألطافك أن تفرّق بيننا فيه، فإنّ هذا شرّ البليّة! يا ربّنا، اقذف في قلبها برد العفو فتسامحني وترجع لي كما عرفتها وألفتها هيّنة ليّنة، وألّف بين قلبينا في ليلتنا هذه، ولا تحرمنا بذنوبنا حظّنا وحقّنا من الودّ في بعضنا، وجنّبنا الشيطان الذي يكره حبّنا، ووسوسته التي تبغي تنافرنا.. آمين.

تلفّت إليها بوجه أبلّ كليّة، فرآها كأنّها الحازوقة بها لشدّة ما بكت صامتا، ضمّها إليه بقوّة إصراره على إنقاذ افتتاحيّتهما، فاختبأت على صدره وضمّته هي الأخرى بقوّة ضعفها بعد أن فتكت ضمّته بهامّ مقاومتها، حتّى لمّا شعر بها أهدأ، أخرجها من بين جناحيه ودفعها قليلا لطيفا لتمكن له رؤية محيّاها، مسح ما بقي من دموعها على خدّيها وهي تنظر إليه حائرة خائرة، ابتسم لها فردّت له الابتسام، عندها أنزل وشاحها عن رأسها وأطلق سراح خصلها، فلمّا حان دور شريط علبة الحلوى وضعت يديها على يديه كأن لتوقفه، فقال:

- ماذا هناك حبيبتي؟

تفادت نظرته بنظرها إلى الأرض وقالت وقد توهّجت وجنتاها بما تناسق وشعرها المرسل:

- لا أدري.

لم يعز منها تفسيرا أو تفصيلا، ابتسم ورفع ذقنها إليه فارتفعت به نظرتها إلى نظرته لثانية ثمّ هوت ثانية، فتلك كانت تبثّ إشعاعات حادّة، قال لاستحيائها:

- انظري إليّ.

أقلعت نظرتها لكنّها بقيت ترتجف في الفضاء كما لو كانت تعبر منطقة اضطرابات جوّيّة.

قال مداعبا أنفها بسبّابته:

- هل بقي من حبّك لي ولو قدر هذه الكرزة؟

ضحكت كأنّها طفلة صغيرة ثمّ فاهت كأنّها عجوز حكيمة وقد هيمنت الطائرة في ربوع الفضاء:

- بل أحبّك كتلة نار مكان قلبي، لم تسلم واحدة من خلاي جسدي وما أصابها من أُوَارها، حبّا حارقا في صدري كأنّه كرة الشمس المشتعلة في صدر السماء، ما أفلحت في إخمادها كلّ الأمطار التي كانت، ومن تلك ما فاض عن بعض الأرض، ومنها ما أغرق بعضها يوما.. ذاك أنّها أسمى من كلّ ذاك.

لم يثبت أُحُد، خافت وقد بشّ وهشّ:

- هذا كلّ ما أنتِ بحاجة إليه.

مدّ يده يطلب يدها فناولته يدها، قام بها نحو أن يمحوا تلك البداية الخاطئة، بادر صالح ذلك المهجور، تنازل له عن طوله ولا أحبّ إلى قلبه في تلك اللحظة من ذاك الإيثار، أشار على الآبقة الأخرى براحة يده يكفكف بها مكانها بالقرب منه أن تتوب من قريب، لبّت نداء قلبه وقلبها وجادت كما هو بطولها، التفت إليها بكامل جسده، فالتفتت إليه بكامل جسدها، وضع كفّه على خدّها، فوضعت كفّها على خدّه، وراح كلّ منهما ترتجل خطوات أنامله في أشكال رسومها، وهما تخترق نظراته نظراتها، ونظراتها نظراته، أخيرا تجاور قلباهما، يقرع كلّ منهما باب الآخر قرعا شديدا مصرّا يكاد يذهب به أو يطير هو من ورائه، ساد الصمت، وأُسدلت الأجفان على الأبصار، لم يعد هذا العالم يسعهما، كي تتعانق الأرواح في عالم آخر، عالم يتصادق فيه الذّئب والحمل.. وتتحقّق الخرافات الجميلة.

***

انتفض نيل مستفيقا من نومة لم تدم طويلا لصيحة استنجاد «آستريد» الصغيرة به، طفر مهرولا إليها لمّا عادت زوجته برأسها على الوسادة ألقته واثقة، غطّت من جديد. انقضّ بأحضانه على أحضانها تطلبه، ضمّها إلى صدره بقوّة لا تشبه قوّة آدميّ خارج توّه من وسن مفكّك للعظام.

- إنّه مجرّد كابوس، كابوس فقط.. لا تخافي يا صغيرتي الحلوة والدك هنا، لا تخافي.

سكنت الغرفة في الدقيقتين المواليتين بالطفلة هدأت في حضنه، وبدأت تتجاوب بإيجابية مع روح الكرى تحوم ملاعبة جفنيها الصغيرين حتى أوقعت بهما في بلاد العجائب في الدقيقة التالية لتينك الدقيقتين. سمع أنفاسها الرهيفة أعمق من الأنفاس الصاحية، ولكنّه أبقاها في حضنه يربّت على ظهرها القليل. ظلام الغرفة كان رماديّا، فأنوار العمود الكهربائي الجاثم على رصيف البيت كالحارس لا يعترض سبيلها كليّة الخشب الخارجي للنافذة إذ به عديد فتحات ضيقة، تبدو كصفوف قطع مستقيمة متوازية منيرة للإنارة التي تمرّرها. أبقاها وبقي معها على فراش ليس فراشها وفي غرفة ليست لهم إنّما كانت له يوما وهم يشغلونها لأيام ثم يطيرون عائدين إلى بلدها الذي ليس بلده.

نظر إلى زوجته نائمة مستريحة إلى جنبها «إنجريد» الرضيعة، لم يستغرب أنّها ما أيقظتها أختها بصريخها، فَهِم بأنّ والدتها أعطتها من ذاك المنوّم مجدّدا، تنهّد.. كم مرّة ألحّ عليها زاجرا أن تترك الصغيرة تنام طبيعيّا، لكن يبدو أنّ الكلاب تنبح والقافلة تسير.

ودّ لو تبقى نائمة على صدره، هكذا لا تشعر هي وحدها بالأمان وإنّما تُشركه معها فيه ما دام أمانه أمانها، غير أنّه أشفق على كريّة رأسها ما عاد لعنيقها طاقة على حملها وقد استناخت، فتراه يشقى بها على عاتقه وهي تفلت عنه مائلة ذات اليمين مرّة وذات الشمال أخرى، حنا والدها عليه وأراحه من أثقاله على وسادة هي عليه وعليها قويّة أمينة، دثّر برفق جسدها الضئيل المسترخي، ما ترك لبرد تلك الليلة فرصة ولا فرجة يتسلّل من خلالها إليه، طبع على جبينها قبلة دافئة، قام عن سريرها المضيف إلى السرير المضيف

الآخر، جلس عليه حذرا أن يزعج استغراق الرضيعة في نومها، مسح زهيد شعيرات ناعمة اعتدّت لها أرضا سطح ذلك المجسّم الرخو الضعيف، ابتسم حتى كاد يضحك لتبسّمها مع ملَكيها، كانت نقطة حسناء نائمة، ملامحها استنساخ لملامح أختها لمّا كانت في مثل سنّها، تكرار لملامحه هو على حدّ قول أمّه وجدّتهما، هي وأختها مذ جاءتا إلى هذا العالم، صارتا كل العالم بالنسبة له، ما عاد يفكّر كما كان، ولا ينظر إلى حقوقه وواجباته كما كان، واجباته ضمّهما، حقوقه ضمّهما كذلك، أفكاره.. حاضرهما والمستقبل.

أخذ هاتفه يريد أن يعرف منه ما إذا كان بإمكانه أن يعود كما زوجته وابنته إلى بعض الاستسلام ذي الدعة، فأخبره بأنّ الساعة الخامسة ما بقيت بينها وبينهم مسافة دقائقيّة تُذكر، وأنّ الفجر تبيعها.

تحامل متعبا إلى معطفه، تغطّى وتمسّك به، شعر بأنّ الساعات التي حُرِمها نومه في تلك الليلة انتقصت كلّ واحدة منها درجة من حرارة جسمه، أحسّ بالغثيان فنصح نفسه بأن يخرج إلى المسجد، سينعش الهواء البارد وهن جسده، وتحتضن الصّلاة الدافئة برد روحه.

مضى وكانت الطريق بين بيت والديه والمسجد طويلة بعض الطول، موحشة بعض الوحشة إذ مظلمة من سوى ذاك العمود الكهربائي الأوّل حارس النافذة، خبّأ يديه، كلّ واحدة في الجيب الموالي لها من معطفه الأسود، وانصهر بسواده في سواد المسير، شعر بمخّه يتجمّد كما لو كان خاليا من قبعة جمجمة عظمية تدفع وتردّ عنه، سارع إلى غطاء الرأس من معطفه نصبه على رأسه ثمّ ثم أسرع بإعادة يديه حيث كانتا قبل أن يطلب نجدتهما رأسه انهال عليه الصقيع ضربا. مشى في تؤدة، لديه متّسع من الوقت قبل آذان

السادسة، لقد تيقّظ كليّة ونشط نشاطَ من نام زيادة عن حاجته، فشكرت أفكاره للبرد صعقته الكهربائية قبل أن تنصرف عنه صارفة جسده عن الشعور به، غريب مريب أمر ابني عمّه قالت، واحد أقام الدنيا وأقعدها لأجل ذكرى مشاعر رثّة، والآخر عاكف كالمالك الحزين على أخرى ليست أكثر حداثة من الأخرى، وكأنّ هذا الكوكب المكتظّ بالنساء أُعدم فجأة النساء إلاّ من هاتين!

لاحت له أنوار المسجد، مقسِّمة في ريّها جدب العتمة المحيطة بها على غزير نوافذه، والقسمة غير عادلة، فأهمُّ النور ذهبت به منارة المئذنة، ولعلّ ذلك الأصل في تسميتها بذلك الاسم، رفع نيل ناظريه إليها لمّا دوّى الآذان الأوّل، كان هواء آخر الليل الثلجي عبث بوجهه الثلاجي حتى احمرّ أنفه وأعلى خدّيه، لقد كان رجلا وسيما فعلا، اعتاد في الزمن الماضي، زمن كان مع ابني عمّه، أن تسرع إليه العيون المعجبة قبلهما، وقد تستقرّ عليه دونهما، بقامته الفارعة وجسده الواضح، أبيض أمهق، خفيف الشعرة، ذو نظرة

كواسرية*, وتبسّم هيطلي**، فوارق الخَلق طفيفة بينه وبين أُحُد، تماما كما طفيفة الفوارق الخَلقيّة بين أُحُد وأوراس.

أُحُد كان كهمزة الوصل بين صورتي الاثنين، الصورة الجسر التي تسمح بالانتقال من نيل إلى أوراس أو العكس دون إغفال التفطّن إلى قرابتهما.. مربوع متين، حنطيّ البشرة كثيف اللحية أهدب العين مفلج الثغر، ولو أنّ العيون كانت تتأنّى الشيء القليل، لأكبرت أُحُدا قبل نيل، لكنّها متسرّعة في إطلاق الأحكام عيون البشر، تنجرف إلى كلّ لامع، وما كلّ ما يلمع ذهبٌ.. لو كانوا يفقهون.

أمّا عن الاختلافات الفكريّة فأُحُد كان وسطا كذلك، بين إفراط أوراس وتفريط نيل الذي ما كانت قامته الفارعة تغني عنه شيئا عندما يتعلّق الأمر بالأفكار، فلا يبرز رأسه وسط سواد رؤوس الناس لأنْ لا لمعان لأفكاره كما لا تلمع أفكار العامّة، ينظر إلى الأمور من زاوية النظر التقليدية، لم يصْبُ يوما إلى ما هو أعمق وأعظم شأنا من زيجة عادية، يُلمّ فيها شمل رجل وامرأة، امرأة يتيسّر تحصيلها وانتهى، إذ كلّ ما كان يهمّه من تحصيلها هو تحصيل أولاده، ثمّ علاقة رياضيّة بحتة، هو بحاجة إلى أولاده، وأولاده بحاجة إلى أمّهم، وبالتالي وكما نصُّ القانون الرياضي: «أ» يساوي «ب»، «ب» يساوي «ج»، يستلزم أنّ «أ» يساوي «ج».

الحبّ؟

---

*كواسرية: من كالكواسر وهى عائلة الصقور

هيطلي: إسم من أسماء الثعلب

«الحبّ للشّجعان، الجبناء تزوّجهم أمّهاتهم» يقول نزار قباني.

يذكر آستر.. واسم أولى ابنتيه مشتقّ من اسمها، حوّرته والدتها وأدخلت عليه بعض الحروف كي يصير أجنبيّا تعرفه، وكان هو من اقترحه عليها تيمّنا بصاحبته، وبالأثر الطيّب الذي انطبع في ذاكرته عن مخالطته لها، وعلى ذكر سيرتها تلك، ما بالها البارحة في العرس نظرت إليه كما نظرت؟ كما لو أنّها منخرطة قناعة في واحد من أحزاب مدام دو ستايل؟ وتلك المقولة لتلك

على ذاك دفترها في سنة قبل سنوات تعريف موجز عن السياسة المتّبعة في دنيا مشاعرها؟ لقد قالت نظرتها عجبا عجابا! لقد قالت أنّها.. لا تزال تحبّه.

***

الدنيا ضوء دون شمس، وهذا حال الشتاء..

أفاقت جوري، استغربت لأوّل وهلة وجه الغرفة الذي يواجه وجهها، لكنّها في الوهلة التبيعة عاد إلى بالها أنّها «تزوّجت». استدارت تبحث عن أُحُد بجوارها فوجدته غائبا، أبلغ عنه مكانه الشاغر، وفهمته عائدا طمأن عنه هاتفه الحاضر.

انثنت عن تمدّدها، فشعرت ببعض الدوار لم تجهل سببه، أيقنته راجعا إلى كونها تعتبر كمن صام وصالا، ولا فرق من سوى أنّها ما انتوت ذلك ولا تعمّدته، هو القلق من عقد أمعاءها فلا استطاعت بعد تلك العقدة التي عقد أكثر من مصّ الماء. دون إبطاء شرعت ذاكرتها قصيرة المدى تفرز وترتّب أحداث اليوم الماضي وتصنّف كلّ ما جرى فيه داخل ملفّات صائنة، كان هناك من الفردوسي وحتّى الجحيمي، ولولا أن ستر الله، كانت أفسدت الليلة الماضية وقبّحت ذكراها إلى الأبد. انتصبت عن جلوسها، استترت بردائها الزهري، حملت حقيبة التواليت وطقم المناشف وتوجّهت إلى الحمّام.

خلّت مياه الدش الدافئة تنهمر على رأسها، وعادت تفكّر في الليلة الماضية، كم كان أُحُد راقيا في تعامله معا، لله درّه من «جنتلمان» هذا الأُحُد! ابتسمت سعيدة بحظّها فعندهم تقول العجائز أنّ المرأة تعرف حظّها من زوجها، ثمّ وهي كذلك تشتمل عليها المياه الساقطة بعنفوان وبلا كلل أو ملل، سمعت

صوته ينادي عليها، لم تكن سمعت قبلُ بابه يُفتح أو يُترس، فأطلّت برأسها ورفعت صوتها كي تتفوّق به على صوت الماء المنهمر:

- حبيبي أكاد أكمل!

وعادت إلى دفق الطهارة تفرك تحت هطوله وجهها.

خرجت بعد قليل تلفّ جسدها ورأسها، توقّفت عند المرآة هناك تغسل أسنانها لمّا التحق أُحُد حاملا في يده زهرة بريّة صغيرة جميلة، اتّكأ على واحد من طولي مستطيل باب الحمّام، وأرسل التّحية خلال بسمة مثالية ونبرة سريالية:

- صباح كلّ أزهار الدنيا، ملكة الأزهار ومالكة القلب..

اقترب منها تجفّف انشراح شفتيها لمطرب غزله وقد فرغت من إنعاش نفَسِها، غرز ساق زهرته تحت منشفة رأسها قريبا من حاجبها، رفع ذقنها حتى لا تقع سهام نظرته السوداء، صيّرها الانبهار كريستالا خارجة عن دائرة الهدف الكراميليّة والتي للبريق بدت شهديّة زيتيّة، فبدا أنّ تلك من رشقته بسهم صباحيّ إلى قلب انبهاره.. وما أخطأت الهدف:

- لا جدوى.. حتّى الحقيقيّات تبدو في حضرتك اصطناعيّات، أيّتها الزهرة الجبّارة!

تناول يدها وقبّلها فكاد ينسى شفتيه عليها، وكادت ترفرف، استحالت فراشة حطّت بدورها بخطّي استشعارها على يده قبلة ناعمة، رفعت حبّها إلى حبّه:

- كلّ صباح وأنتَ لي.. حبيبي.

***

العالم اليوم مقسّم إلى فيلقين، سيّان اعتبرنا معيار التصنيف التقدم أو اعتبرناه التخلف، أو قلنا هو التطور أو عددناه التقهقر.. هناك تلك الدول التي فوق الريح، وهناك الأخرى التي تحت الأرض.

والناس لم يصنعوا حضاراتهم وأمجادهم بأن جعلوا مركز اهتماماتهم وأقصى أمانيهم أن يعثروا على رجال لو كنّ نساء، أو نساء لو كانوا رجالا، أو ينجبن من الرجال لو كنّ نساء، أو ينجبن لهم النساء لو كانوا رجالا.. الأمر مثير للدهشة كيف أنّ هذا الموضوع يستقطب ألباب الناس وتتهافت عليه قلوبهم وتطلبه مساعيهم أين لا توجد حضارة ولا تقدّم يوجد، وينجرّ عن ذلك ضغط عنيف يمارسه كلّ المجتمع على من يحيد بأفكاره ورغباته عن تعليمات هذه الروشيتة البالية.

ارتدت آستر معطفها، حملت حقيبة يدها وهمّت بالفرار من ذاك المكان اللوذعي الاسم البليد المحتوى، هكذا يلقى الذّهن الصفاء بعد العناء. «مكتبة» و«المكتبيّات» فيها لا أطروحة أخرى تتطرّق إليها أحاديثهن عدا زوجي وما طعم وابني وما هشم، أو خطيبي لا يريد أو حبيب كم أريد! ذاك أنّهنّ كنّ كلّهن بين متزوّجات ومقبلات وطالبات، على غرارها.. ما عادت تنتسب إلى أيّ من تلك الطّوائف.

يقولون: الطعام الذي يُطهى على نار متأنّية، ينضج شهيّا..

الإنسان بحاجة إلى الوقت كي يتطوّر متوازنا سليما.. بحاجة إلى حقبة زمنية يخلو فيها بالحياة وتخلو فيها الحياة من غير نفسه، ربّما أحاط ببعض الخبايا أو تجلّت له بعض الخفايا. لكنّ المرأة على وجه الخصوص كأنّها ليست من حقّها هذه الخلوة الشرعية بالزمن، فابتداءً من الثانية التي ينتقل فيها عدّاد عمرها برقم عشراته إلى الرقم «٢»، فقد قُلبت الساعة الرملية وضُغط على زرّ الكرونومتر، ويتمّ إيهامها بأن مرور الوقت ما عاد في صالحها، فالبويضات باتت مهدّدة بالانقراض، وهذه جزئية لا تغضّ عنها المجتمعات التكاثرية بقدر ما تجعلها كليّة وإلزامية.

معظمهنّ كنّ أقحمن أنفسهنّ في زيجات تضيع فيها من مقاصد الزواج الأساسيّة، زيجات ترضي المظاهر وتخطب ودّ «البريستيج» التافه، فكلّ الذي يهمّ هو حلقة خاتم رخيصة مهما غلت ما دامت تُشترى بالنفس تطوّق بنصر اليد اليسرى، ويزعمن أنّها القناعة من تحتّم عليهنّ ألاّ يضعن شروطا أبدا، المشاعر أو أقلّه القبول، التوافق أو أقلّه التقارب، هذه كماليّات ولا أهمّية لها ومن تتبع مثلها فإنّها تسير بها على طريق تؤدّي إلى الهاوية.. هاوية بعبع العنوسة.

وهنا قصّة «المرأة والعنوسة» يجدر أن تنهل العبرة من قصّة «الجميلة والوحش»، عندما التقت به أوّل مرة ذعرت وأوشكت أن تموت لفرط ما ذعرت من وجهه، لكنّها مع الأيام ولأنّها جميلة عقل كما جميلة وجه، تعلّمت كيف تنظر إليه من زاوية نظر مختلفة، فوقعت في غرام قلبه الساحر، وما لبثت أن قلبته بحبّها عن ذاك المظهر الخدّاع إلى صورته الحقيقية: فارس وسيم ومن به لن تهيم.

التكاثر وظيفة تأتي بها كلّ الكائنات الحيّة، حالها حال التنفس والتغذّي وطرح الفضلات، لذلك إهانةٌ لعقله أن يضعها الإنسان صوب عينيه هدفا، والزواج وسيلة من المفترض أنّها تعين على بلوغ الغايات، لكنّه لا يستحقّ أن يكون غاية بحدّ ذاته. ما أحوج النّاس أن ينتبهوا عن هذا التقليد الأعمى، فالتقليد ينفي عقل الإنسان إلى قوقعة، والعيش داخل قوقعة يُفقد البصر ويُنسي أنّ هناك احتمالات أخرى، والحياة رحلة، تُزهق فيها روح المغامرة لو اقتصرت على احتمال واحد.

ما أبأسها من حياة خالية تلك التي لا تحوم إلاّ حول الخواتم وكم غالية، والمهور وكم عالية، والرجال وما تشتهي وما لا تشتهي بطونهم، والحفّاظات وأنواعها، وحليب الرضع وأصنافه!

آستر مختلفة..

لن ترتبط لمجرّد الارتباط، لمجرّد أن يقولوا «ارتبطت»، لمجرّد ألاّ تخرج عن القاعدة، فليقولوا ما يشاؤون، هي لا تكترث، ما عادت تكترث مذ استوعبت ألاّ تغرنّك الكثرة، ما تفعل هذه الكثرة أنّها تتلاحق، تتدافع، تتصايح كي تتثبّت: «هذا هو العادي»، هي لن تلحق أحدا كأن لا عقل لها مستقلّ عدا عقولهم، كأن لا أفكار بها خاصة باستثناء أفكارهم، ستمضي في سبيلها وحدها، لا تمانع أن تبقى وحدها، الوحدة أنقى وأريح من إحاطة متكدّرة مكدّرة، «المهمّ المشاركة».. لافتة لن ترفعها يوما.

- يا بنات، علّقن هذه المسابقة على الجدار هناك حتى يتمكّن من استيضاح أمرها كل وفود المكتبة.

قال الحاجب أقبل عليهنّ سدّ على آستر مخرجها، تقدّم سلّم الوثيقة لمستندة إلى الجدار المعني، قبل أن يتوارى مخلّفا من كانت قبله بزهيد تتوق إلى الهروب وقد أفقدها جديده سرعة رغبتها في اختراق الباب، جعلت ترتّب من مظهر وقفة معطفها عليها في تبطّؤ وتنتظر ألا تنتظر واحدة من المنكبّات على الكلمات المكتوبات وتبوح بالفحوى، تعلم أنّ الأمر لن يستغرق مطوّلا، لن تضطرّ إلى الصبر فمثل هذه الموضوعات عادة ليس في وسعها الحفاظ على انتباههن والإبقاء على اهتمامهن، إنّه فضول سرقاطيّ فقط، وهذا يولد محتضرا.

- آستر أقبلي أيّتها الفيلسوفة..

قالت المفوّض إليها أمر الورقة في تهكّم جعل جليساتها الأثيرات يهزرن.

- اقرئي لعلّك تكتبين، لعلّك تفوزين بالعمرة هذه، فلعلّك تجدين لك هناك أخيرا أميرا يليق بسموّك..

زادتها وآستر تأخذ عنها وقد أخذها اهتمامها بما تقول الورقة عن الاهتمام بما تقول المسرورة بتنكيتها وبصاحباتها يهزقن في الضحك.

كانت مسابقة كما قال الحاجب، مسابقة أدبيّة المطلوب فيها تحرير رسالة مع حريّة التوجه في الخطاب، والجائزة كما قالت أمّ الطرائف عمرة لشخصين.

ردّت الأمانة إلى مركز حلقة لاهية هازلة وانصرفت ذهنها إلى فحص العيّنة التي سكبتها العين منذ قليل.

الجائزة مغرية، والموضوع يستهوي: «رسالة».. ما ألطف كتابة الرسائل! لكن لمن قد تكتب؟ لوالدتها؟ لجوري؟ هذه وجهات كلاسيكيّة لن تهزّ مشاعر كاتبها ولا قارئها..

لأوراس؟ ماذا عساها تقول له؟ أنّها آسفة؟ وتحترمه كثيرا؟ وتتمنّى له كلّ الخير؟

لا.. لا.. أوراس ليس مصدر إلهام جيّدًا بالنسبة لها.

ثمّ كالبرق يداهم سماء مدلهمّة فيسطع له انشراحها، خطر على بالها كالومضة.. نيل.

هذا لديها ما تقول له، هذه فرصتها كي تلقي بهذه الصخرة الجاثمة على صدرها على قلبها على الورقة، ولتتهشّم الصّخرة.. أو لتتمزّق الورقة!

سارت إلى البيت، وصارت داخله، وصارت داخل غرفتها داخله، وأطبقت بابها عليها، تخفّفت من حقيبتها علّقتها على كرسيّ مكتبها، جلست مباشرة دون تأجيل أو إبطاء. أرخت ضمّة خمارها لرأسها، فتحت حامل الأوراق، انتزعت ورقة، التقطت قلما من الكأس حاملة الأقلام، استلّته من غمده، فرشت الورقة في وضعيّة لها أن تريح يدا تحسبها ستنصب، نزلت برأس القلم على رأس الورقة، ابتلعت تمكّث ريقها في حلقها، رفعت رأس القلم ورأسها لشعور غريب بالحرّ أسعفته بسحب ذراعيها من معطفها، تركته يندكّ عن انتصابه عليها على الكرسيّ، بينما عادت بأناملها في إثر القلم وبالقلم في إثر الورقة، تردّدت قليلا برأس القلم تطرق به أولى زوايا الورقة، ثمّ..

هناك جِرَاحٌ محتومة.. ما دمنا نجهل المستقبل.

لا أذكر شيئا ذكري ابتهاشي بقربك في ذلك اليوم القصيّ.. فقد رأيت في عينك أجمل الأحلام، وسمعت في صوتك أعذب الأنغام، وكلّ ذاك يا حسرتي.. كان ضربا من الأوهام.

وأعود، أعود إلى ذلك اليوم الأوّل كلّما رُشق ظهرٌ ألجأته إليك بسهم منك جديد، أعود إلى براءتي وسلامة نيّتي، إلى بساطتي وسذاجتي وأمانتي واستقامتي، إلى ثقة لست أدري ماذا من أفعالك استحقّها؟ أعود اليوم بلا براءة ولا سلامة نيّة، ولا بساطة ولا سذاجة ولا أمانة ولا استقامة ولا ثقة، أقف أمام خيالات الماضي المترنّحة لنشوة الأماني الرّائقة، بصورة الحاضر الحانقة.

أعود.. ولكنّ الماضي لا يعود.

فأجلس على تلّة الحاضر أحيانا من الشّروق وحتّى الغروب أراقب السفوح السّابقات، كما يسترجع المعذّبون على أراضي العذاب عذاباتهم.

كلّ ما كنتُ بحاجة إليه هناك في أحضان ماضٍ غويّ هو لقطة واحدة لو كان غيب المستقبل يجود.. أن تمتدّ نحوي يد بيضاء وسط ليلة للأشواق سوداء، وتهبني صورة تجمعكما، وتهبني الخلاص.

ماذا كنتُ أفعل وأنا أحبّك كلّ ذاك، إلّا كمن يشيّد قلعة على أرض سقيمةِ زلازل؟.. أو يكتب على الصبورة بدل كرّاسه؟.. أو يدعك جوف فرن من حبّات الرّماد؟

ماذا كنتُ أفعل وأنا أنتظرك، إلّا كمن يرتقب عودة الزّفرات إلى صدور الأموات؟.. أو انحسار الأنّات عن المعاناة والمقاساة؟

ماذا كنتُ أفعل.. وماذا كنتَ تفعل؟ وشتّان بين الأفعال.. شتّان.

هناك طعنات لا مفرّ منها.. ما دمنا لا نستطيع أن نتواجد في كلّ الأمكنة في كلّ الأزمنة، ما دمنا لا نستطيع أن نرى كلّ شيء.

أعود إلى ذلك اليوم الأوّل، إلى حماستك التي أنجبت حماستي، إلى وعودك التي أنجبت آمالي.. ثمّ أعود إلى اليوم الآخر، إلى اليوم الأخير، إلى يوم العرس. وأعراس قوم عند قوم مآتم.. فقد كانت صورتها إزّائي، وكنت أنظر إليها, أراعيها ببصري ، أعاين وجهها تقسيمة تقسيمة.. لكنّني أخفقت! عجزت أن أرى فيه الشمس التي رأيت.. أو نجمة الشّعرى. لم أر لِمَ رأيتَها امرأة أكثر؟ لِمَ رأيتني امرأة أقلّ؟ لكنّني أحسبك لا ترى جيّدا.. أو هي المضامين على أشكالها تقع.

وتكدّر العرس، حتّى صرت أسمع الأغاني نواحا وأرى الرقص تلوّ وأزدرد الحلوى مرارة.. كنتُ بحاجة إلى صورتها في يوم متقدّم عن ذلك اليوم بآلاف الأيّام، أن ينزل بها من السّماء ملَك في ظرف أسود ويقاطع جلوسي إليك في خضوع، وإنصاتي لك في خشوع، منذرا إياي بالرسالة القاتمة من خيانة قادمة.

كنتُ بحاجة إلى أن أراك تطرق بابها وتطلب والدها.. كي تسأله يدها.

كنتُ بحاجة إلى أن أسمعك تحدّثها عن موعد العرس وعدد المعازيم، ودلال السّهرة واجتذال السّفرة..

كنتُ بحاجة إلى أن أنقلب شبحا، فأحضر عرسك وأشهد تفاصيل الوُدّ بينكما..

ولكنّني كنتُ غائبة غافلة عن الذي يحدث هناك بعيدا عنّي.. جالسة أو واقفة، نائمة أو صاحية، أقلي بيضة أو أطالع كتابا، أشطف ثوبا أو أكنس حيّزا، أسقي زهرة أو أطعم عصفورا، أنظر عبر نافذة الغرفة أو الحافلة، أشاهد فيلما أو أنصت إلى معزوفة، أصفّف شعري أو أفرّش أسناني.. وأفكّر فيك. كنتُ أفكّر فيك بمواظبة لم يحظ بمثلها التزام في حياتي، أفكّر فيك كما لم أفكّر في معضلة في حياتي، في أنّه لا يعقل أن تنساني، فما بيننا زمان وحنان.. أفكّر في أنّ القلوب تتعلّق والأرواح تألف، في أنّ للماضي روحا طوّافة لا تفارق الأحبّة.. أفكّر، أمّا أنت.. فنسيتَ.

فكيف نسيتني أيّها الخارق، وقلبت صفحة عملاقة فولاذيّة في طرفة عين؟ ألأنّك رجل، والرجال بعضلات أقوى؟ أم هي الصّفحة.. فولاذ عملاق معي وورق حقير معك؟

لا بأس، أستطيع أن أستوعب أحكام التّصيب أعزّت أم أذلّت، بيد أنّني أقلّ نباهة عندما يتعلّق الأمر باحتواء بعض السّلوك عن بعض البشر.. من أنتَ؟ هل يعقل أنّ حبيبي الذي عرفت معه أصدق مشاعر قلبي وأحلى سنوات عمري هو نفسه أنت؟ هو نفسه من استعاض عنّي بزيجة مستعجلة؟ بعد أشهر بعدي، تلبس البدلة وتخاصر البديلة؟ ألا يمكن أنّني عشت قصة كساندرا بطلة الفيلم المكسيكي الشّهير، أحببت رجلا وما الذي ظلّ يفجعني المرّة تلو

الأخرى بآخر غير التوأم الشّرير للطّيب حبيبي؟ أم أنّه انفصام في الشّخصيّة.. داء حبيبي؟

لا أدري، وأحسن ما في الأمر وأنفع من أن أدري أنّ الدراية لم تعد همّي، كلّ ما أدري أنّه نصيب من الألم كُتب عليّ فتألّمته، بصرف النّظر عن سبب الألم.. وأنّك ما أطلّلت على مسرح حياتي كي تلعب دورا أفخم من عروس قرقوز قدريّة، أرسلتها أيادي الحكمة الخفيّة لتبهجني حينا، تشجيني أمدا.. ثمّ ألقاها خلف الأستار دمية بلا روح.

الإيمان هو الجواب، والإيمان هو الدّواء، والإيمان هو العزاء، وكما قال أحد العارفين لرجل تعدّى عليه: «إن كنتَ ظالما، فالذي سلّطك عليّ ليس بظالم».

لقد غربت الشمس واغتربت الطيور، فهذا الشق الثاني من اليوم أقبل، وهذا الشق الثاني من الرسالة مقبل.. بالمناسبة، ماذا كنت فهمت من الأوّل؟

كالعادة.. لا جواب لمن أسأل، فلا وجود لمن أنادي.

إنّك غارق في حياتك التي تخلو منّي، فكيف تسمع سؤالي؟ أو كيف تردّ على ندائي؟

لا عليك فقد تعوّدت الصّمت يسمع عنك ويردّ، والصّمت أوفى..

لا عليك فقد سكن قلبي..

فاقبل وفاة حبّك وميلادي..

لأنّها الصخرة يا نيل.. انزلقت إلى الوادي.

***

تحرّكت الطائرة عن جمودها، بدأت تسير، تسرع أكثر كلّما دارت عجلاتها أكثر، حتى انطلقت تعدو، حتى وثبت انقضّت على الفضاء وراحت تتسلّق أدراجه، حتى وطئت ببطنها ظهر السحب وفوّضت هيكلها الحديدي الهائل إلى محرّكها المستحكم، يمحو الجاذبية الأرضية والفوارق المكانية.

على كتف أُحُد، استقرّت نفس جوري لسفينة الفضاء استقرّ تأرجح جناحيها، بعد خفوق تسبّبت لها به جلبة إقلاعها، هي لم تسافر قطّ جوّا، ومع ذلك ما لبثت أن استأنست لمنظر السحب أسفل منهم، وراء النافذة الصغيرة عن يمينها.

كانت مشاعرها معقّدة تعقّد هواجسها: جزء مسرّة، شطر حماسة، قطعة خوف، وقسم شجن.. لقد تركت خلفها أهلها وأحبّاءها وأرضا طلعت إلى الحياة على وجهها وتشرّبت من تربتها وهوائها.. من اليوم تفصلها عن هذا المألوف مسافات قارية لا حول ولا قوة لها عليها وسائل النقل البسيطة التي عهدت من سيارات وحافلات، وأمارة ذلك أنّها نفسها سيّارة أُحُد كانت مسافرة، بالباخرة هي لا بالطائرة.

إنّها ذاهبة إلى الغربة، حيث الشوق يأتي عن اليمين وعن الشمال ويطلّ من فوق الرؤوس وينبجس من تحت الأقدام.. ستشتاق وتشتاق، ويحها كم ستشتاق وتحنّ! إلى الحبيبين، إلى شِفاء وجنونها، إلى شهاب ومعاندته، إلى آستر.. ورفقتها.

فضّلت ألاّ يرافقوها إلى المطار خشية أن تنتابها حالة هياج عاطفي ما، تفلت خلالها زمام نفسها وتركض بها عن الطائرة صوب الملوّحين بأيديهم، وهي لا يخفى عليها عن الفراق مذاقه الحنظليّ، لذلك كلّ مراسيم الوداع تمّت في بيتهم، وحاولوا جهدهم كلّهم أن يخفّفوا من مأساوية الموقف إلى أن أسرع أُحُد اختتم وقفة اللمة المفارقة بوعود واثقة قبل أن تنبع العيون المحيطة به، وتغرقهم في أجواء هم في غنى عن دراميتها.

أُحُد غدا الشخص الوحيد الذي تعرفه، ويمكنها أو لا خيار لها آخر غير الوثوق به والاعتماد عليه، إنّها مقبلة على دنيا أخرى، مغايرة تماما.. لغة أجنبيّة، دين مختلف، أفكار في الاتّجاه المعاكس، عادات غريبة وتقاليد غربيّة، أشكال غير مألوفة.. نمط حياتي تحتمله سيتنافر حتما مع نمط حياتها السابق الذي لا تنوي أن تنسلخ من مجمله، لذا لا تتوقّع منه أن يأخذها بالأحضان منذ أوّل لقاء، هي لن تتجرّد من مقوّمات شخصيّتها ومميزات إنسانها، دينها على وجه الخصوص، ظاهره وباطنه، وأمر صار مشهورا منذ غير حديث رفض بعض الغربيين وإنكارهم لبعض ما يترتّب عن حريّة الاعتقاد الديني، كحجاب المسلمة مثلا، وهنا فرنسا هي الأقلّ سمعة حسنة.

وحتّى وبعض هذا القلق يساورها ويسعى جاهدا لهدّ بناءات جميلة اسمها مشاريعها، فإنّها سافرت حاملة معها فوق أمتعتها حقائب طموحات وأحلام هي أثقل من كلّ جهاز عروس جديدة، تريد أن تواصل دراستها، أن تضع يدها على دكتوراه فرنسية.. أن تقوم بكلّ ما كانت منه محرومة في بلادها، وما كان حرمانها نزرا يستهان به، فالمرأة من حيث قادمة هي لا تزال غارقة لم يطلع رأسها عن سطح الماء وإن صعدت عن قعره، لا تزال مكبوتة ولا تزال

الطريق أمامها طويلة وكؤودا قبل أن تعكس لها مرآة حالها حال امرأة أجنبية.

الحياة في دول العالم الأوّل محشوّة الأيام ملوّنة، مستبعد هناك أن تقع في لبس الـ «في أيّ يوم نحن؟»، السبت سبت والأحد أحد، لكلّ يوم طعمه الخاصّ أنّ له أشغاله الخاصّة وربّما ترفيها خاصّا به، فتلك مجتمعات الهوايات، الهواية ليست رفاهية في اعتقادهم، إنّما حتميّة ينشّأ عليها الطفل منذ أبكر ما يمكن، وبهذا لم يقضوا على الفراغ فقط، ففيما دول العالم الثالث لم ترم الأبيض والأسود هم تفنّنوا في زركشة صورة شاشة دنياهم، وما يصل من حضارتهم عبر وسيط أقمارهم الصّناعية ليس إلّا ما يتصدّقون به على التّخلف.

شاهدت جوري على التلفاز يوما ممارسة «اليوجا»، ومذ ذاك راقت لها أو هي ولعت بها أنّها تقنية شاملة منفعتها رؤوس مثلث الذات البشرية: العقل والروح والجسد، غير أنّه ما كان من حقّها أكثر من أن يروق لها أو تولع، فهناك هم أناس يتفرّجون على الأحداث، أمّا اليوم وقد انتقلت إلى الضفة حيث الناس يصنعون الأحداث، فإنّها تريد أن تتسجّل في ناد رياضي أو ما شاكل ممّا يُعنى بمثل تلك الممارسة، وبالتوازي مع ذلك، تريد أيضا عملا صغيرا تعفي به أُحُد من نفقات إضافية، هي تريد أمورا عديدة وفي نفس الوقت لا تريد أن يكون لتحقيقها لذاتها تبعات على ميزانيته، كأن تئيض إلى مصّاصة لراتبه، تعلم أنّه بات زوجها فلا تجمل معاملات شبيهة بتصفية الحسابات، غير أنّه مغلوب على أمرها.. نبتة الدّبق يستحيل أن ترسم رمزا لشخصيتها.

هناك أيضا المتاحف والمعالم السياحية والقاعات السينمائية والحفلات الموسيقية.. هناك الكثير تتوق إلى اكتشافه، وأبسطه القيام بنزهة على قارب أو.. دراجة! أو حتى مشيا، فالمناظر غير المناظر، والجديد غير القديم.. كلّها تبدو أفكارا شهيّة مشوّقة شوقا تعوّل عليه أن يخفّف من وطأة الشوق الأوّل.

لطالما علمت حدسا ثمّ بفضل الأقمار الصناعية تلك أن هذا العالم أوسع من الحدود الضيقة التي تضيّق بها عليهم الخناق الثقافة التي تنتمي إليها.. تنتمي إليها أصولًا، لا قناعة ولا موافقة.

لم تكن تشعر بأنّها إنسان كامل الصلاحيات: قائمة ممنوعات، قوائم مفروضات.. لمجرّد أنّها أنثى.

اليوم.. وعلى قدر ما تريد كلّ ما سبق، تريد أكثر منه وكفى بها.. الحريّة.

أن تنكسر الأغلال التي تقيّد أطرافها وتعيق تدفّقها، تلك الخاصّة بالمجتمعات التي تكنّى سائرة في طريق النمو، وسيرها أشبه بالركود من الحركة، أشبه بالرجوع إلى الخلف من الركود، أن تسقط أحمالها الثقيلة لهذه المجتمعات عن كاهلها، أن تراه أخيرا.. ضوء الشمس.

هذه الإرادات اجتمعت وتظاهرت حضّتها وحرّضتها إلى جانب دفع والديها على الموافقة، ومن دون ذلك كانت رفضت رفضا عبارته عندهم لشدّة ما قاطع: «لو أنّني أعلمك آخر جنس الرجال!».

قصّتها مع أُحُد قصّة تشترك في المطلع مع آلاف القصص العاطفيّة في تبدّيها أجمل وقائع الحياة، تشترك في لوعة النهاية مع آلاف القصص العاطفيّة

كذلك، تختلف عن آلاف القصص.. في تفصيل العودة.

عاد.. لكن بعد ماذا؟

عندهم يقولون: «يا لي رحت وولّيت وش من بتّة خلّيت؟».

لا شيء مع السعادة يذهب سدى، كأنّها تتقاضى عن زمنها أسى يوافق امتداده وشدّتها، تناسب طرديّ بين كمّي الطرب والكرب في أعقابه.. والنتيجة التي توصّل إليها «لافوزييه» أن «لا شيء يضيع، كلّه يتحوّل»، لعلّها اختلفت معها لاحقا الأبحاث المتوالية والتجارب المتتالية، لكن بعيدا عن العلوم الدقيقة.. كم كان محقّا لافوزييه، وكم كانت دقيقة من نتيجة توصّل إليها.

كلّ نشوة جوري الأولى تحوّلت إلى حرقة وحسرة في الأخير، كل أعراس أحلامها تحوّلت إلى مآتم وجنائز مزاجها، كل حبّها انقلب عليها كوحش مفترس ينكر مروّضه، وتحوّل إلى وحشة بينها وبين نفسها، وإلى فراغ تحوّل كل ما يحيط بها.. وهو أين كان لمّا كانت تعانيه؟

مع امرأة أخرى..

رفعت رأسها عن كتفه لآخر ما راودها، ستظلّ هذه المرأة الأخرى وإن زالت.. ستظلّ بينها وبينه كالكبيرة بين العبد وربّه.

أمرّ من الصبر؟

نعم حاضر.. إنّه الاستبدال.

بعد الاستبدال، يسرّح الصبر..

تختصر كلّ ناس الدنيا في واحد يختصرك واحدا من ناس الدنيا..

وتتوقّف عنده وتخيّم.. ويتجاوزك كما يتجاوز الأرض بالخطى.

كيف تتجاوز إنجازا تجاوزه بعد ذلك؟

كيف تنسى أنّه استطاع أن يدبر عنها؟ أن يتركها واقفة تنظر إليه بدموعها المخبوءة يبتعد عنها؟

ويمضي.. متأكّدا.. تتصاعد عنه أبخرة كل اهتمام كان منه، لا يوقفه إحساس بالذنب، ولا يلتفت إلى ذكرى.. ما هذا؟

لا.. ليس قوّة.

فقط جهاز كاشف.. ألكوتست.. يفضح كم كانت نسبة المُدَّعَى حبيبا في دم المُدَّعِي الحب؟

وهي واقفة تشهده ينصرم دونما أيّ ترنّح، ما عادت بعد ذلك المشهد لها قابلية تصديق أي قسم!

أنّ نسبتها يوما كانت أكبر من ٠.١ في الألف.

غيهب

«اللقاء ليس إلّا بداية لفراق».. مثل ياباني.

وانقضى شهر العسل كالضرمة بالنار.

- جوري.. هل أنت نائمة حبيبتي؟

قال أُحُد العائد لتوّه من سهرة قضاها برفقة نيل.

شعرت بمعطفه سقط بجانبها لكنّها لم تحرّك ساكنا، وعتمة الغرفة لم تسمح له بملاحظة رعشة جفنيها، فكرّر السؤال من خلفها وقد وضع يده على ذراعها هزّه بها لطيفا يبغي سحبها من بين ذراعي ما خاله نوما.. نحو ذراعيه.

كذبت هزّة خفيفة والتفتت إلى يده على ذراعها:

- ماذا هناك، أُحُد؟ ثمّ كم الساعة الآن؟

قالت وصوتها يمثّل دور الواهن.

- محض العاشرة والنصف حبيبتي، واشتقت إليكِ..

أبعدت كتفها عن قرب يده وقالت وهي غابت عن خاطرها كل تعليمات دورها التمثيلي وفي نفس الوقت انزلقت داخل دور تمثيلي آخر:

- كيف تشتاق لي وأنا لا أغيب؟

صمت قليلا كي يسترجع ويستجمع، كي يدحض حجّتها مسايرا تمثيليّتها:

- إنّما هذا أفظع أنواع الشوق.. لقد كنت في ليال قد خلت، وغيابك يؤرّقني، أفرّ إلى أحلام ألقاك فيها باسمة ودودة.. ثمّ أسقي زهرة الحلم تلك بدعاء ما أسرع ما يغدقني أملا، فأنام هانئا مستبشرا أنّ الغد جميل ولناظره قريب.. كنتِ غائبة حاضرة.. أمّا وأنت حاضرة غائبة، فيا حزني على نفسي بماذا عساي أسلّيها، وريثما ماذا تراني أمنّيها؟ كم مرّة هنأت فيها بحبّي لك؟.. ماذا تريدين بهذه الضغناء؟ وما رجاؤك أن تجني منها هذه الشحناء؟ من هذا المحارب المنكر الذي ألقاه يلقاني دوما على أهبّة الاستعداد للهيجاء؟ وبنظرة شزراء؟ من وراء درع وشلحاء؟ أين جوري وردتي الصهباء؟

إنّك تهدرين لو تعلمين أوقاتا ثمينة، بل لا تقدّر بثمن.. كم حجم ما تعلمين عن القادم؟ لماذا تؤجّلين السعادة؟ تعبثين بها إلى وقت قد يطردها؟ لماذا تطردين فرحة أكيدة جاثية عند عتبة دارك تستجديك النزول بمنزلك؟ تصفقين بابك في وجهها وتجلسين وراءه تنتظرين افتراضات أفراح أخرى قد لن تطرق بابك المقطّب يوما.. هل النشوة التي يصبّها في قلبك الشعور بأنّك تثأرين ألذّ إلى قلبك الذي ما عدت أعرف من أن تدعي الماضي يرقد بسلام في قبره، ولا تجحدي نعمة حاضرة بنواح صامت متواصل ساخط على قبر نقمة ماتت من بعيد؟ وليت شعري كنت أعلمه مقت فعلا خلف كل جفائك هذا..

عاد بيده على ذراعها:

- حبيبتي.. حرّرينا من الماضي ودعينا نعيش اللحظة، إنّها كل ما نملك.. عيشيها.. دعيني أعيشها.

وقفت حروفها، كلّ حرف بباب مخرجه تنتظر وصول دمعتها إلى حجرة العين، قالت بعد أن هوت تلك ثقيلة ساخنة:

- دعني أُحُد، دعني أنام.

أطرقت الغرفة المظلمة لحبّة زمن دقيقة كدقيقة، لحظة صمت سوداء، قبل أن يتمرّد أُحُد على وطأة ذاك الجوّ الرهيب، قائما نحو هائما على وجهه في الطرقات.

التفتت صوب انطباق الباب عليها وحيدة في السواد والصمت، لم تتوقّع أنّه سيخرج، ظنّت أنّه مثل كلّ مرّة تدّعي فيها الإغفاء سيدعو لها أمان اللّه، يقبّلها على خدّها وينام إلى جنبها هادئا وديعا مسالما كنسمة ربيعيّة، هل بدأ يضيق ذرعا؟ فلو ذاك، فإنّه يصعب على نفسيّة الإنسان وعلى قدر ما كان محبّا وحليما أن يتحمّل نكدا لا يغيب إلاّ ويعود، ولا يعود إلاّ.. ويمكث.

ولكنّها الحياة، فيها قضايا وشؤون شائكة جدا، ولا آدمي ولا حتى أعدل القضاة يفصل فيها ولا يظلم، حالات تجمع بين مجرمين هم أنفسهم ضحايا.. وضحايا هم أنفسهم المجرمون.

كان ظاهر جوري كجلّ المظاهر.. كاذبا.

ما كانت راضية عن الزوجة التي صارت، دور القويّة التي في غنى عن حبّ زوجها وعطفه برعت في تقمّصه، تزامنا مع ذلك وفي مكان سحيق من

روحها، كانت تشعر بضعف، كذاك الضعف الذي يرافق الأسقام.. فتخور له الأجسام.

يحدث في الحبّ، أن يصمد الأصدق بصدر عار أمام الآخر يشره دبّابته صوب قلبه، يفجّره.. ويتلاشى.

ولو في وسع الرجل الضحيّة أن يخرج بعد المجرمة إلى الطرقات يقلّب بصره بين رائحة وغادية حتّى يجد له بلسما بداية علاقة بديلة، فإنّ مثل هذا ليس متاحا جدّا للمرأة الضّحيّة في مجتمعات القواقع، وعليه ليس نادرا بسبب ذلك ما تلقاها لا تزال جالسة بقلبها المندثر بين يديها على حجر من الأحجار المندثرة عن انهيار مدشّن علاقتها الأولى، وهي تنظر إلى الآثار، وتبكي على الأطلال.

بعدها تحتّم عليها غريزة الدفاع عن بقائها القيام فتقوم، تدس قلبها المضرج بدمه في جوفها وتقوم..

لكنها تقوم بقلب مضرج بدمه، وقد انطبعت في ذاكرتها صور الدماء والدمار، وتعود إلى الحياة بتلك الصور البشعة، معلّقة تملأ جدران غرفة ذهنها.

وفي نفس تلك الغرفة التي صارت مطليّة ألما وقسوة، تحتّم عليها استمراريّة الحياة هذه المرّة أن تستقبل وفودا جددا، زوّارا قد يستقبحوا أو يستشنعوا ديكور الغرفة.. ففي آخر المطاف، ما أدراهم هم عن قصّة تشاؤمها وحدادها؟

ثمّ ماذا لو أنّ الزائر الجديد ليس جديدا بمعنى جديد؟

ماذا لو ما هو في الحقيقة إلاّ مهندس ديكور الغرفة..

***

جرّتها من بين ذراعي النوم عنوة نغمة الجوّال..

مدّت يدا متكاسلة إلى المنضدة بجانبها، التقطت مصدر الإزعاج دلّها عليه ضوؤه، رمقته بعين واحدة فإذا الرقم مجهول.. أسكتته وأعادته وهمّت أن تعود فعاد يصيح مجدّدا، تذمّرت ملامح وجهها وانصبّت عليه قبضتها، حدّقت فيه بكلتا عينيها لمّا صمت من تلقاء نفسه، ولأنّها لم تفتح المكالمة ارتسم على الشاشة ما معناه رقمًا ورسمًا وكلِمًا أنّهما اتّصالان فوّتتهما. بجانب ذلك أظهرت ساعته الإلكترونية أنّها الرابعة وأربعون دقيقة.

انقلبت بوجهها وثب الروع عليه مرّة واحدة فأعاده إلى وعيه كما كان ليفعل دلو ماء بارد سقط على البقيّة الوسنى فيه إلى حيّز أُحُد، تحسّسته حتى وهي تدري أنه خاو منه، ما شعرت بغير معطفه وموجة جزع ممزوج بالهلع تباغت تمام حضور وعيها.. رنّ الهاتف ثالثة، أشرق مصباح الشعلة الكهربائية:

- ألو..

قالت وقد تجمّدت كل التفاعلات الفكرية في رأسها تجمّد الدماء في عروقها، تجمّد ريقها في حلقها.

- مدام جوري؟

سأل متحدّث بلكنة فرنسية.

-نعم أنا..

ردّت وقد تملّكها القلق من ألاّ تفهم أو لا تُفهم أو.. تفهم ما لن يسرّها أن تفهم.

- والسيد أُحُد زوجك؟

تابع المتحدّث الفرنسي..

صاحت:

- ويلي أُحُد! ما به زوجي؟!

-سيّدتي عليك الحضور إلى مستشفى سانت فيليب، يؤسفني أن أعلمك أنّ زوجك تعرّض لحادث مرور.

وأغلق الخط، وانقطع التيار الكهربائي.. أو هي الشعلة، غربت أنوارها.

***

«يقضي نحو ١.٢٤ مليون نسمة نحبهم كلّ عام نتيجة حوادث المرور»، عن منظّمة الصحة العالمية.

وبالرغم من هذه الإحصائية المرعبة، فلا أحد يعتبر نفسه معنيّا بالحذر.

يقولون: «لا حذر مع القدر»، وهو كذلك لو كان حذِر وما دحر.

لكن أن نقصي الحذر ثمّ نتّهم القدر، هذا كلام فارغ لا ينبت إلاّ على ألسنة الدراويش.

والحذر ليس مفروضا على السائقين داخل مركباتهم الغدّارة فحسب، كلّنا مطالبون بالحذر..

لا يأمن مكر الأيّام وتقلّب الدهر إلاّ ساذج، المصائب تقع ووسائل الإعلام تشيع وهات من يتّعظ..

نحن لا نتّعظ لا من المصائب ولا لنا أسوة حسنة في من تعظهم المصائب، أو ما حاجتنا إلى الموعظة و«بعيد الشر» حصانتنا وملاكنا الحارس؟

«بعيد الشر»..

وكم من مرّة كان الشر فيها محدقا، وقريبا جدّا..

لا أحد يعلم.. لا أحد يستطيع أن يتكهّن بأيّ يد قد يلطم المستقبل.

اندفعت من السرير كمريض أعصاب فاتته جرعة المهدّئ، هرعت إلى زرّ النور، ما كلّ هذا الظلام الذي انقلب كاتما على أنفاسها؟ أنارت الغرفة فأدركت أنّ الخطب أصاب الشعلة لا اعترى التيار، راحت تردّد جهرا في تسرّع وهياج: «سانت فيليب، سانت فيليب، سانت فيليب، سانت فيليب..» خشية أن يطير الهول بالكلمة التي مرادفها.. أُحُد، وهي تحاول الاتّصال بنيل.

ردّت زوجته بعد المحاولة الرابعة..

- أنا جوري من فضلك أيقظي نيل أخبريه أنّ أُحُدا في المستشفى، أسرعي أرجوك!

فما كانت إلاّ ثوان وانبعث من الطرف الآخر للخطّ صوت نيل مذهولا:

- جوري ماذا جرى؟!

انفجرت باكية:

- نيل أرجوك أنا لا أعرف أين يقع مستشفى سانت فيليب هذا!

- اهدئي جوري أرجوك، اهدئي وقولي لي ماذا حصل بالضبط؟

- لقد اتّصلوا بي منذ قليل وأخبروني بأنّ أُحُدا تعرّض لحادث سير وأنّه الآن في مستشفى سانت فيليب.. يجب أن أذهب إلى هناك حالا!

- جوري اسمعيني، اسمعيني أرجوك، اهدئي ولا تتحرّكي من مكانك، مسافة الطريق وأكون عندك، إيّاك أن تتحرّكي! قد تتوهين لا سمح الله أو تتعرّضين لما له أن يربو بالمشكلة إلى مشكلتين، هل تفهمين ما أقول؟

- نعم.. لا تتأخّر نيل أرجوك!

قالت وهي تبتلع نوبة دموع قويّة كنوبة سعال جافّ.

قفزت تبدّل ملابسها وقد تبدّلت عيناها إلى عيون الثيران وتبدّل نور الغرفة إلى الإحمرار، لا تدري ماذا لبست، استترت بأوّل ما وجدت، ألقت بوشاح والدتها على رأسها وضربت بطرف اليمين ذات الشمال وبطرف الشمال ذات اليمين، تدخّلت في معطفها وجلست في الرواق على الأرض غير مبالية ببرد الأرضيّة، لم تعد تشعر بشيء من الأشياء التي يعيها العقل في الظروف العادية، ذاك أنّه كان أعلن حالة الطوارئ.

متقوقعة على نفسها متّكئة بجبينها على ركبتيها وهي تحضن ساقيها وتقضم شفتيها، هكذا كانت جالسة تنتظر، تهتزّ كجالسة على الجمر وهي جالسة على القرّ، ولا تستوعب ما كان يحدث.. لا يمكن أن يحدث مثل هذا، إنّه أفظع من أن يحدث! هل يعقل أن يقع له مكروه وهما لا يزالان عريسان جديدان؟

مزّقت للهواجس شفتها عندما رنّ جرس الباب بإلحاح، فانتفضت عن جلوسها ولاختلال يدها تأخّرت في الفتح.

- إلهي جوري فمك! خذي خذي..

ناولها نيل ما بقي له من مناديل ورقيّة داخل كيسها الذي كان داخل جيبه.

جعلت واحدة على شفتها وهي تغلق الباب على المأوى الصغير شغرًا، وتتوسّل إليه أنّ عليهما الإسراع لأنّهما تأخّرا على أُحُد وحده في المستشفى.

نزلا أدراج العمارة مهرولين بسرعة من هابط في مزلقة، ذكّرها بحزام الأمان أن تشدّه عليها وسألها وقد انطلق بالسيارة:

- كيف حصل هذا؟ المفروض أنّنا افترقنا إلى بيتينا.. لم يعد أبدا؟ أم عاد وتشاجرتما؟ أم.. ماذا حصل؟

«تشاجرتما»..

كأنّه أنساها عاصفة الخبر ذاك التفصيل الذي ليس أقلّ من سبب مباشر في وقوع تلك النّازلة، نعم تشاجرا.. لا هي شاجرته!

- أنا السبب.. أنا السبب!

قالت تذرف وعادت إلى شفتها.. تنهشها نهشا.

***

انطلقت تجري في رواق طويل، ذي أضواء كثيرة كثيفة.. مخيفة.

عجيب أمرها في تلك الليلة!

خافت من الظلام وها هي ذي خائفة من النور.. إلى أين المفرّ؟

تجري ونيل خلفها يجري وينادي، تجري ولا تدري أصائبة خطواتها الهائلة الهائجة في مسلكها الذي تسلك؟ أم تراها تائهة واهمة، تجري هربا من نفس الذي تجري إليه؟

تجري.. إلى قسم «العناية المشدّدة».

ما هذه الليلة الليلاء المحرقة التي ما بقي من سوادها إلاّ بعض الرماد في السماء يعكّر مزاج استيقاظها ويحول دون ابتسام شمسها؟

ماذا يحمل لها هذا النهار القادم مسرعا في إثر تلك امرأته الحبلى بصاعقة وتوشك أن تلد لها لا له؟

كانت رشيدة خطواتها، كأنّه قلبها المُوَلّه وللقلب المولع بصيرة.. سائقها ودليلها.

كادت ترتطم برجل في زيّ ممرّض يغادر المصعد لمّا استدركها نيل لاهثا، سألاه في كلمات متقاطعة متقطّعة عن القسم فأشار عليهما بالمصعد الذي

كان فيه أن يأخذاه ليأخذهما إلى الطابق الثالث.

لم تطق أكثر من عشرين ثانية من الانتظار، هي التي عاقرت الصّبر سنوات!

وانطلقت من جديد تجري صوب الأدراج، تجري عليها.. لم تعد تشعر بحدود تحدّ قدرتها العضليّة ولا بعضلة قلبها تتحوّل إلى «هولك العجيب»، لم تعد تشعر بشيء يشبه التعب من شأنه أن يعيق جريها..

لاحت لها لافتة القسم، بعيدة قريبة في آن، لا تريد أن تبلغها ولا تريد إلاّ أن تبلغه، تشوّش مقياس إدراكها، وقفت مشلولة.. تتجاذبانها، رغبتان، متساويتان في الشدّة متعاكستان في الاتجّاه وهاتان محصّلتهما فيزيائيا هي الصفر.. اللاحراك.

التحق نيل، توقّف لوقوفها.. بقيا كذلك كأنّهما جثّتان محنّطتان وسط رواق آخر، أكثر طولا أكثر نورا بدا، وما عاد للنور معنى إيجابي، أنوار المستشفيات تعمي، كلّها تذكّر بأنوار غرف العمليّات، تلك التي تسلّط لشقّ الجسد، على قدر ما ساطعة، على قدر ما مرعبة.

مرّ زمن.. لعلّه قصير، لعلّه أطول من الرواق، وانبعث من نفس الباب الذي اقتلع الروح وذهب بحياة نظرتيهما رجل.. كأنّه طبيب.

اختلج نيل من مكانه عن جموده قرب جمودها وأغار عليه، فانتبهت وتحرّكت وأغارت عليه، يشحذان أخبار أُحُد..

طأطأ الرجل رأسه، ثم رفعه إلى نيل وراح يتكلّم معه بفرنسية لا تسعفها عربية، ونيل يواجهه كأنّه ابتلع لسانه، كأنّه لا يفهم أكثر منها تلك الذاهلة

بجانبه التي لم تفهم شيئا أو فهمت شيئا، لكأنّ الرجل يحدّث عن شيء، لكأنّه.. وهب الأعضاء؟

لا..لا! هي لم تفهم جيّدا، فهي لا تفهم شيئا ولا تعقل شيئا من كلّ هذه الحياة! إنّها تهذي، إنّه كابوس، مجرّد كابوس.. وإلاّ فماذا تفعل هي هنا في هذا المستشفى المشؤوم على مقربة من قسم فيه منحوس تسمع من رجل مفزع عن منح الأعضاء المروّع؟

ستستيقظ.. الآن فورا لا بدّ أن تستيقظ، هناك من الكوابيس ما يتسبّب بسكتة قلبية، لابدّ أن تقوم وتنقضّ على زوجها وحبيبها تضمّه ضمّة لن يقدر شيء على انتزاعه منها بعدها، ولا حتّى الموت!

التفت نيل إليها شاحبا كأنّه الموت لطّخت سيرته وجهه، وتمتم..

لكنّها لم تفهم، حتّى والكلمات عربية لا تشوبها فرنسية، لم تفهم شيئا.. فحرّكت رأسها كما لو أنّه ما عاد رأسها ولا هي من حرّكته، وابتعدت.. راحت تبتعد بيديها على أذنيها ورأسها يتحرّك لا يزال كأنّه خرج عن طوعها.. لم تفهم وليست ترى جيّدا فوق ذلك.. من هذا؟ نيل؟ ما بال رأسه استحال رأس بوم؟ وذاك المطرق الحزين بجانبه، أطبيب أم غراب؟

خطا نيل إلى الأمام نحوها ما خطته إلى الخلف وقد احتشدت كل سوائل جسده في عينيه:

- جوري.. يقولون توقّف دماغه.. ويريدون أن يعلموا ما إذا كنت ترغبين في منح أعضائه.

ثمّ وقع على ركبتيه مهزوم حشده صارخا، وقد انفجرت المياه من أغلب حواس وجهه، وجوري تنظر إليه ثمّ إلى الطبيب، ثمّ تعود إليه قبل أن تعود إلى الطبيب، وتعود إليه وتعود إلى الطبيب حتى شعرت بالدوار، إنّها لا تفهم، لا تفهم!

اقترب الطبيب منها وسألها:

- سيّدتي أعلم أنّ هذا صعب لكن.. هل توقّعين الأوراق؟

فهمت السؤال هذه المرّة.. لكن لم تفهم عن أيّ أوراق يتحدّث؟

نزلت بركبتيها إلى الأرض، أبعدت يديْ نيل عن وجهه وقالت في براءة طفوليّة:

- نيل.. عن أيّ أوراق يتحدّث؟

وسط كلّ تلك المياه، كان نيل غارقا، تخبّط صوته قبل أن يشقّ له طريقا نحوها:

- يريدون أعضاءه جوري، لقد مات.. مات أُحُد!

***

مات؟ مات.. ما معنى مات؟

هل يريد ذاك الذي يصيب الناس الآخرين، فتتصلّب له أجسادهم وتكفّ عن كلّ حركة؟ عن الإتيان بأيّة حركة صغيرة من شأنها أن تفرّقها عن الجماد؟ ثمّ

يُحمل الجماد بعد ذلك ويُقضى به إلى.. المقبرة؟ ثمّ تُحفر له حفرة عميقة يُدسّ فيها؟ ثمّ يُهال عليه التراب؟ الكثير من التراب حتى لا يبقى منه إلاّ ذكراه وتلك التلّة الترابية الصغيرة؟ كأنّه ما كان؟ ولا أحبّ ولا حبيب؟ ولا ترك زوجة لو تركها تلفت وليتها انعدمت؟

لا! أُحُد لا يعنيه هذا الموت! كيف يموت الآن؟ لا يمكن أن يموت الآن! لا يمكن ذلك أبدا أبدا!

لا يمكن ولا يُعقل! لا يُعقل أن يموت شابّ سليم معافى لا يشكو خطبا ولا علّة، قويّ قوّة دحرج بها خزانة غرفة المعيشة وحده، وعريس جديد.. بالكاد، بالكاد تذوّق الهناءة مع عروسه.. كيف يُختطف صحنها من بين يديهما؟ كيف يموت هذا؟ كيف؟! كم عاش هذا حتّى يموت؟ أين هو من الموت هذا حتى يموت؟ كيف يموت ويترك أشغاله ومشاريعه معلّقة؟ من لها هذه بعده ينجزها؟ وزوجته حبيبته.. كيف يموت ويتركها فرِقة؟ وفي أمره وأمرها مفرّقة؟ كيف يموت؟ وهل عاد كي يموت؟ كيف يموت وقد خرج يتفسّح قليلا ثمّ يعود؟

لا! وألف ألف لا! هذا هراء! ما هذا الهراء؟ وبماذا يهذي هذان الرجلان؟ إنّهما يكفران! يجهران كفرا ولا يستحييان! فتبّا لهما ولما يهمهمان!

- أريد أن أرى زوجي..

قالت جوري هادئة هدوءا أشفق منه وعليه الطبيب، ووجم له إعوال نيل.

اغتنم الطبيب ردّة فعلها الغريبة وكرّر عليها السؤال:

- إذن تمنحين أعضاءه سيّدتي؟

«تمنحين أعضاءه؟»..

وهل هي كانت لها حتى تمنحها لهم؟

في الحياة، هناك حوادث المرور، وهناك حوادث أخرى، اصطدامات عنيفة بين ما يجوز.. وما لا نحبّ.

رجل له أخ له عائلة، زوجة وأبناء.

يقضي اللّه سبحانه بأن يموت الأخ الذي زوج وأب، قدّر اللّه وما شاء فعل..

يتقدّم الأخ الحيّ لأرملة أخيه يخطبها، يعرض بذلك عليها ألاّ يتشتّت أمرها وأمر أولادها وألاّ تحتار في الأمرين بعد الفقيد.

علميّا، عرضه سخيّ.

لكن أدبيّا.. هناك خلل ما.

إنسان تزوّج، رجلا كان أو امرأة.

بعد قليل أو كثير يكتشف أنّ شريكه لا يمكنه أن يعطيه نسلا..

ينفصل عنه، ويذهب للبحث عن غيره.. ما دام العطب ليس عطبه.

علميّا، هذا حقّه.

أدبيّا.. هناك خلل ما.

رجل متزوج منذ عقدين أو ثلاثة.. زوجته لم تعد كما في أوّل عهدها طبعا.

يقرّر أنّه يريد زوجة ثانية يجدّد معها شبابه ويدحر بها ضجره ويلوّن بها من جديد حياته..

شرعا.. هذا حقّه.

علميّا.. قد يحقّق حلم امرأة أخرى طالت أيمتها في بيت والدها ولا تنتظر إلاّ الزواج.

أدبيّا.. هناك خلل ما.

إنسان مات.. ما عاد شيئا، ولا جسده بات شيئا يستحقّ شيئا، ما دام مآله وجبة للديدان.

إنسان حيّ مريض، «قد» تشفيه بعض أعضاء ذاك الميت «لو» ما رفضها جسده على أنّها دخيلة وانقضّ عليها يفتّتها فعجّلت بلحاقه ذاك الأوّل..

علميّا، لمَ لا إذن هتك الأوّل وإفراغه في الثاني؟

أدبيّا.. هناك خلل ما.

والحياة اختيارات والإنسان قرارات، والعلم والأدب في نزاع لا يخبو، من منهما يظفر بتاج الصّواب..

كيف ترضى أن يمزّقوا حبيبها بإذن منها؟ كيف؟!

كيف ترضى أن يأخذوا منهما قلبه، هذا الذي أحبّت وأحبّها؟

هذا ملك لهما، ولن يسير إلى غيرهما!

وكأنّها فهمت قليلا، هبّت كريح صرصر بسبابة الوعيد كادت تقحمها في عين الطبيب:

-والله لو أنّك تعيد على مسامعي نعيقك هذا، لأشقّنّ صدرك بأظافري، ولأنتشلنّ أعضاءك منك حيّا بيديّ، ثمّ لأجعلنّها طعاما للكلاب الشريدة أو لألوكنّها بنفس أسناني!

حان دور الطبيب ألّا يفهم، غير أنّ كلّ ذاك الاحتدام والشرر المتطاير من العينين كفاه غرابة اللهجة، فهم أنه لا مجال لمناقشتها فاعتذر، أخبرها برقم غرفة أُحُد، وانصرف.

***

وانطلقت تجري مرّة أخرى.. لا مفرّ، المكتوب على الجبين لا مفرّ تراه العين، وكُتب على جبينها أنّها سترهق جريا في تلك ليلة الشر.

اندفعت من الباب وكادت تقع، لكنّها ما وقعت فتابعت جريها، ربما ارتطمت ببعض الناس، لا تدري.. لن تذكر إلاّ أرقاما تتتالى قبل الغرفة «٧».

توقّفت عن الجري..

كان ذلك الزجاج يفصل بينها وبين قلبها الذي شعرت به هذه المرّة سيحطّم قفصها الصّدري بركلاته، أو لو نجت فبندبة يتركها في صدرها، مساوئها وأضرارها على صحتها مساوئ وأضرار ثقب الأوزون في غلاف الجوّ على صحّة الأرض، ولا تجزم.. أهو الجريئ خَطْبُهْ؟ أم هي صورة هذا الممدّد خلف الزجاج مسّت عقله بخبل؟

اقتربت من الزجاج وكلّها مقشعرّ يرتعد، استندته بيديها ثمّ هبطت بجبينها عليه، سينكسر الزجاج لضغط يديها وجبينها وأنفها كما سينكسر صدرها لضغط قلبها كما قد تكسر معارضة الزجاج أنفها..

إنّه هو.. أو كأنّه هو.. أُحُد.. حبيبها الأبدي.

عاري الصدر، ممدّد في هدوء غريب عن ديناميكيّته مخيف، موصول كأنّه مربوط بجمّ أجهزة ومعدّات لا تبعث أحجامها ولا أشكالها ولا ألوانها ولا شيء فيها على الاطمئنان.. لعلّها هي التي تقيّده وتحبسه؟

لا يبدو ذلك.. عيناه مغمضتان كما لو كان يفترش قاع بئر سحيقة من النوم، وهذا الشحوب الباهت الذي يفترش وجهه المجروح؟

شعرت برغبة أو هي حاجة إلى أن تطلق صرخة، لكن مما لا ريب فيه أنّ صرختها ستجمهر الناس حولها، وتجتذب الممرّضين والأطبّاء مثلما تفعل برادة الحديد بقطع المغناطيس، كي يقيّدوها فوق أنّ حبيبها مقيّد، ويجرّوها بعيدا عنه إلى قسم آخر، لا ريب سيكون قسم الأمراض العقليّة، فغصّت بريقها وقبرت صرختها.

التحق نيل، تكلّم قليلا في صوت قليل، أخبرها أنّه أكّد موقفها وأخبرهم بأنّهما سينتظران، فالأعمار بيد اللّه لا بأيديهم، لعلّ قلبه يوقظ عقله.

فُتحت حتى الأقصى حنفيّتان في وجهها، فهمت عيناها ما لم تفهمه هي، توسّلت إلى خيال نيل من وراء ذلك الشلّال أن يتدبّر لها أمر الزجاج الفاصل أو تكسره، تريد أن تدخل، تحتاج أن تدخل، لا بدّ أن تدخل.. وما هو إلّا وقت قصير ذاك الذي مكثته خلف الشلّال، حتّى عاد نيل بمن يعفيها والمستشفى كسر الزجاج.

***

وضعت يديها على وجهه، راحت تتلمّسه كمن لا يرى ويبحث عن هويّة صاحب الملامح، دغدغت جفنيه المسبلين بأناملها بنفس الرفق الذي يُقترب به من حديثي الولادة، على أمل أن يفتحهما لشعور بها، مشّطت لحيته براحتي كفّيها فتوقّف لذلك انهمار دموعها وجفّت له شفتاها، ما عاد هناك من فرق لون بين وجهيهما المتقابلين.. على عكس دموعها، لم تتوقّف يداها، مضتا تتقدّمان كمتعطّشتين لنزهة على بطحاء جسده، متشوّقتان، مشتاقتان لكلّ الأركان والمكان، إنّها تتبرّك به لمصابها، بنحره وصدره وذراعيه.. ويديه:

- يداكَ باردتان حبيبي..

راعى نيل ما قدّره حاجتها إلى الانفراد بلحظات قد تكون الأخيرة مع زوجها، فانسحب مكرها لأنّه أحبّ أن يبقى إلى جانب ابن عمّه، لكنّه سبّق جوري على نفسه، وغادر نحو التكفّل بما يجب تسويته من إجراءات بما في ذلك إجراء اتصالات، عليه أن يُعلم عائلتهم في الوطن أنّ أُحُدا أمسى في كرب فبأمسّ

الحاجة إلى دعائهم، كما جميعهم بحاجة إلى أن يثبتوا ويتآزروا في مواجهة هذه الصاعقة الواقعة على رؤوسهم بغتة وهم نائمون ومن حيث لا يدرون، في انتظار أن يلطف الله بهم فيما جرت به مقاديره.

توارى نيل، فهوت بشفتيها على خدّه، وهوت لميلتها صهاريج من عينيها مغمضتين على عينيه مغمضتين، خرج سيلان دموعها عن الصمت، صار له صوت، إلّا أنّه صوت لا يبلغها فتعقله إلّا أذن واعية، أذن حيّة.. صارت كل دمعة تسقط تمزّق في داخلها شيئا قبل أن تسقط، وها هنّ تعاضدن كلّهن على فتحة العين، يُخشى على ذلك القالب الغزالي من أعدادهنّ المتلاحمة المتدافعة أن يبطشن به ويمزّقنه، خبّأت وجهها في رأس الزاوية، بين عنقه وعاتقه، لشعور بالذعر ما كانت لتجد أمانا منه إلّا في حضنه، كانت لتشتريها بحياتها، ضمّته. أملى عليها اليأس وقد بدأ يطغى حلما أنّ القدر رحم حبّها الذي أضعفها وضعفها، فعكس الأدوار بها مكانه وبه مكانها وستموت في حضنه، ويا لها من ميتة!

لكنّه مكانه لا يتحرّك، لكنّها مكانها، ولن يأخذ أحدهما مكان الآخر.. قامت عنه مفجوعة، إنّه في حالة ضعف شديدة شدّة لا أشدّ منها، ألا تكفيه أثقال الغيبوبة حتى يزيدها عليها رأسها الثقيل عنادًا؟ لم تبتعد.. دنت من وجهه تنظر إليه وتمسح على رأسه، تحدّق فيه.. أخيرا رأته.. كأنّها ما رأته مذ ذاك اليوم الأسود الذي اعتذر فيه منها وسافر عنها إلى امرأة أخرى، كأنّه ما فارقها إلى امرأة أخرى، بل كأنّه فارقها رغما عنه، رغما عنها، ولبث ما لبث، ولبثت ما لبثت، يحبّان بعضهما ومخلصين لبعضهما وينتظران أن يجتمعا، وها قد

اجتمعا في هذه اللحظة السوداء لبياض حبّهما، أليس كلّ ما هو أبيض مآله إلى أسود في هذا العالم الأسود؟

مات الغضب وانطفأت نيران العتاب، وأكصَّ شيطان الانتقام وانكسرت شوكة الوردة..

قم حبيبي، قم.. كفاك نوما على هذا الفراش الكريه، قم نَعُد إلى بيتنا الحبيب، قم ضمّني وابسم وقل إنّه كابوس..

أما كنت تركتني؟ ألا يكفي كلّ ذاك الذي تركتني؟ أما تبت أنّك تركتني؟ أم أنّك عدت كي تعود إلى غلطك وتتركني؟ فثق يا حبيبي لو تلك تركة نكراء، فأعوذ بحنان الله من تركة بتراء.

اسمع منّي ودعك من الانتقام ولا تؤاخذني، أما سمعت عن اللوحة تؤاخذ المسمار تقول يفلِقها؟ وللرثاء رأس المسمار من رأس، إذ للهرس.

آه يا غالي.. هل أخبرتك عن تتيّمي وتعشّقي وتعلّقي وتولّهي؟

إنّي وا أسفي على نفسي، أسررت أكثر ممّا جهرت، وأخفيت أكثر ممّا أبديت، وتكلّفت أكثر ممّا ارتخيت، وحرمت نفسي لو تدري أكثر ممّا حرمتك، وجافيت قلبي لو تعلم أكثر ممّا جافيتك، وإنّي شقيت، شقيت! أكثر ممّا أشقيتك، وكان حزني أعظم ممّا أحزنتك، وما كنت أردّ أبوابي في وجهك لأنّي كنت أوصدها في وجه هناءتي وسروري. آسفة على ما كان منّي، وأكثر أسفي أنا على ما كان منك.. لقد أحببنا بعضنا وآذينا بعضنا، ولعلّنا آذينا بعضنا أكثر ممّا أحببنا بعضنا، وهذا خُلق الحبّ الحقيقي يا حبيبي.

أنت كنت غائبا، أمّا أنا فشهدت عذاب جوري في ذلك اليوم الأسود الذي فتح الباب لأيّام سوداء لا أحصيها ولا ذكراها أبغيها، في ذلك اليوم الذي قرّرتَ أنّك تستطيع بعدا عنّي وتطيق بدلا منّي، في ذلك اليوم شهدت عذابها وأنت لم تشهده، ولست أدري أين اختفت بعده.. هل ماتت ودفنوها؟ أم ماتت وأحرقوها ونثروا رمادها من فوق قمّة جبل عال، فطارت الرياح بكل نقطة إلى غير حال؟ أم تُراها عاشت ونفوها إلى قطعة من الأرض لا تكاد تكون من الأرض؟ أو لعلّها نجت بما ودّت لو أنّها به قضت..

أنت يا قلبي ذهبت إلى امرأة أخرى، وآخٍ لقلب العاشقة من امرأة أخرى! وامرأة أخرى امرأة، والمرأة لها من السلطان على الرجل، فلا أشكّ في أنّها ما قصّرت : ومحت طيفي كلما همّ بك في خيالك بشذاها وبسمتها ودفء حضورها، حتى لعلّك أحببتها حينا ما كنت أحببت فيه أحدا سواك، ولو أنّي للأمانة هممت أن أبدّلك، لا لقلبي بل لجرح قلبي هممت أن أبدّلك، وكم هممت ونويت.. لكنّك أفسدت قلبي ومرّدت الرضا، لقد نظرت في الرجال ونظرت، واستملحت فيهم واستقبحت، فأعوزني إلّا من استقبحت، ولا عنّي أغنى من استملحت، ما بال صورتك ما كانت تفارقني؟ وما بال شبحك اقترن بظلّي إذا أشمست وبروحي إذا أظلمت؟ والحقّ الحقّ، لو أنّي أحببتك فما أحببت شبحك، وحاولت أن أصرفه عنّي وأطرده بعيدا إلى حيث كنتَ بعيدا، لكنّه تعلّق بأستار قلبي واستجار به منّي، وذكرت لقلبي فعلتك التي فعلت، وذكرت وذكّرت، قصصتها عليه مرارا وتكرارا عساه إلى رشده يعود ويُحكّم العقل والأنفة، فما وجدته إلّا يفهم قليلا ثمّ يسهى طويلا وينسى كثيرا، فزجرته لمّا لم ينفع لين المواعظ ولا استقام حاله، فحملت السوط، وجلدته وجلدته

وجلدته! ولم تأخذني به رأفة، حتى أفقدته ظهره ووعيه. وعاد وعيه، وأنا جاثمة أترقّب وأتوقّع توبته، فتدري؟ كنتَ أوّل لفظة عاد بها إلى وعيه.

فهمت بعد ذلك أنّك سحرته، ووحده اللّه يعلم أين دفنت سحره.. فهمت أن عليّ المضيّ دونه، فمضيت دونه، وأنا ماضية التقيتك ثانية واتّصلت أخباري بأخبارك، وأنا.. لا قلب لي.

فلا تلمني حبيبي، ولُم وُدّا.. فاق الحدّ.

لقد قال نيل أمرا قاله له ذاك، لكن اطمئن يا قلبي، فأنا لا أصدّق لا ذاك ولا نيل، فذاك ذاك، ونيل ذاك صدّقته آستر فحسبنا ما جنت من تصديقها، صدّقني إنّهما كاذبان، أنت نائم لأنّني البومة التي أفسدت عليك نومتك البارحة بنعيقها، فلتنم ولتنعم حبيبي، أنا هنا.. والانتظار صنعتي وصنيعي.

***

الأيّام السوداء.. إنها جزء من الحياة، لا مفرّ.

كان يوم نحس مستمرّ، يوم كرب وبلاء متواصلين، لم تبتعد جوري طواله عن أُحُد إلّا للصلوات، وظلّ لسانها خلاله لهجا بالدعوات، حالها حال الحاجّة أمّ أوراس، ما قامت عن سجّادتها ولا فارقت محرابها وملائكة النهار وملائكة الّليل شهود على اعتكافتها الضارعة الشاهقة بما يشقّ القلب ويذيب الروح.. إلى من يلجأ الإنسان في مثل ذلك الموقف من دون اللّه، وعلى من ينادي؟

وكان الشروق وكان الغروب ومرّ الغروب وحلّ الظلام، ولا اكتفى أُحُد نوما.

قدم الطبيب وجوري متمسّكة لا تزال بحبل حياة زوجها، حبل بسماكة خيط العنكبوت..

- سيّدتي.. أفهم شعورك جيّدا، لكنّ شعورك لن يغيّر الحقيقة والحاصل، إنّ زوجك مضى وما هذا الذي تعلّقين عليه آمالا إلّا عمل آلات وتيار كهربائي لو فُصل عنه انفصل عنّا، أنا أحترم قرارك وخيارك بالإبقاء عليه متّصلا إلى آخر لحظة، لكن استعدّي.. لا أظنّها ساعات تلك التي ستسجّل لقلبه دقّات.

وغادر مسرعا، على الرغم من أنّ مثل حالة أُحُد والصراحة التي تطلّبتها لم تكن غريبة عليه فهو شهد مثلها مرّات ومرّات، لكنّ وجه جوري وملامح الطفلة المذعورة التي أناخت عليه منذ الصباح، كان لهما وقع على نفسيّته خاصّ.

بدأت تصدّق قليلا أنّ الطبيب ربّما لم يكذب كثيرا، فبدأ الرعب ينسلّ إلى قلبها حتى تساقطت من على الكرسي بجانب أُحُد على الأرض.

رفعت يديها وتعلّقت بالذي والاها من فراشه وقد اتّكأت بجبينها على نفس الذي والاها من السرير، وانفجرت لسيل اليأس بلغ الزبى منتحبة، صرخت:«يا ربّ!»، ثمّ والنشيج يلحّن الأسى:

- يا ربّي أتوسّل إليك بقوّتك وضعفي، بقدرتك وعجزي، بغناك وفاقتي، سبحانك أنت الغنيّ عنّي وعن عبدك هذا، وأنا أفقر ما أكون إليك وأحوج ما أكون إلى عبدك هذا، بهذا.. أتوسّل إليك ألا تأخذه منّي على هذا النحو غاضبا منّي، يا ربّي لو كلّ الناس يجهلون فتعلم ما هذا الرجل لي، فالرحمة الرحمة

خلّه لي ولا تؤدّبني به، إنّ مثل هذا عذاب كعذاب النار لا يموت فيها الهاوي فيها ولا يحيى..

- جوري..

خطفت رأسها عن كتف الفراش ورفعته صوب الذي خالته مصدره، فرأت يده كأنّها تحرّكت، ولذلك الصوت ولتلك الصورة طارت إليه، وتفرقعت ألعاب ناريّة في عينيها لرؤية عينيه غير مغمضتين، انقضّت عليه تلثم ممّا تجد منه على قدر لوعتها المتراكمة حتّى أدركت شعفته وهي تهمس في ما أقرب إلى الجنون منه إلى العقل: آسفة.. آسفة..

اقتربت من وجهه ووجهها يسيل لفيضان ألمّ به، ويدها تضمّ يده والأخرى على خدّه، ونظراتها تخترق الماء تخترق نظراته الواهنة.

- يا قلب جوري، أأمرني يا غالي..

قالت دموعها.

- لا يهمّني متى وأين سأموت.. ما دمتِ كنتِ لي.

انطلق صفير حادّ في الغرفة أفزع رأسها عن حافّة الفراش، جسدها عن الأرض، وإذا بنيل يصيح من خلفها بالممرّضة فصاحت به:

- لقد استفاق وكلّمني! هل سمعته؟ هل سمعت ما قال لي؟

جاء الطبيب سرعا فاهتجمته جوري صاخبة:

- لقد استفاق وعاد انتكس! استفاق! لماذا عاد انتكس؟

أطفأ الطبيب الجهاز:

- ساعة الوفاة: «العاشرة والنصف»..

التفتت جوري إلى نيل بنظرة مصدومة صدمة ذهبت بقدرة جهازها العصبي على تحليل الرسائل البصريّة والسمعيّة واستيعاب مضامينها، لكأنّها حالة عسر هضم دماغي:

- نيل.. صدّقني لقد استفاق وحدّثني.. صدّقني..

طأطأ نيل رأسه والدموع تشقّ طريقين طويلين، قال متفاديا نظرتها إذ كانت تلفح، تثير في القلب حرقة أو حريقا، شعورا حرّيفا.. مماثلا لذاك الذي كانت أثارته «وفاة أُحُد»:

- سيبقى حيّا في قلوبنا إلى الأبد.

انقطع لسانها عن الكلام، بصرها عن الطرف، جسدها عن الحراك، انقطعت عن الحياة لبرهة، ماتت ثمّ استفاقت:

- تبّا لك من كاذب يا نيل.. تبّا لك! ألا تستطيع أن تصدق مرّة واحدة في حياتك؟ مرّة!

خُيّل إليها أنّ الأنوار طُمست في تلك الغرفة فاستحالت جحرا مظلما، لولا أولئك المحدقون بها، من استحالوا أشباحا باهتة تبثّ في الغرفة أضواءها

الخافتة، وها هو شبح منها يقترب من أُحُد بغطاء باهت في يديه، وها هو.. يلقيه عليه.

«العاشرة والنصف واشتقت إليكِ»، «ساعة الوفاة: العاشرة والنصف»، «العاشرة والنصف واشتقت إليكِ»، «ساعة الوفاة: العاشرة والنصف»، «اشتقت إليكِ»، «ساعة الوفاة»، «العاشرة والنصف»، «العاشرة والنصف»، «العاشرة والنصف»... راح التوقيت يتردّد، يتكرّر التلفظ به في ذهنها كدقّات عقرب الثواني في غرفة خرساء جنّ عليها الّليل، تارة بصوت الطبيب وتارة بصوت.. أُحُد.. ما عاد الأكسجين غازا يشبع أنفاسها، إنّها تختنق، لم تسمع بعد ذلك من صوت إلّا صوت الممرّضة فزِعا: «لقد أُغمي عليها!»..

***

الأمر بهذه البساطة إذن.. بهذه الجسامة من البساطة، بهذه الفظاعة من البساطة.

زقاق صغير ضيّق، مثله موجود في كلّ مكان، في كلّ الشوارع والحارات من المدن من البلاد.

والبشر أطفال صغار، على قدر ما كبروا، على قدروا ما عرفوا وفهموا، لا يكبرون أبدا عن طفولة الغفلة.. فتجدهم يلعبون ويركضون في الشوارع والحارات، وبين المدن والبلاد، لعلّهم يركضون خلف بعضهم أو لعلّهم يركضون خلف أنفسهم أو هو شيء آخر يركض خلفهم، حتى في لحظة ما، يعزلهم عن قطيع الأحياء ويدفع بهم إلى واحد من تلك الأزقّة، أزقّة لا أحد منها يرجع، ولا أحد منها يعود.

زقاق صغير ضيّق إذن.. هو كلّ الفاصل بين الحياة والموت.

وعلاقة الأحياء بالحياة علاقة عشقيّة خالصة ومن الطراز الرفيع، ذلك العشق النهم الذي يلتهم محاسن المعشوق في أول جلسة ولا يشبع، فينتقل إلى العيوب، لا يكاد يسيغها في أوّل الأمر، ثمّ لا يلبث تروّض عفونتها سفاهته، فيذعن ويعلن الولاء لها، ويعيش على خبزها القذر، ثمّ تتطوّر حالة الاضطراب ويلتوي مسلك العشق ويلتوي، حتى تُرشف العيوب ويتلذّذ العاشق بعبورها إلى جوفه كما استساغ ليوم واحد.. عبور المحاسن.

العشق الحقيقي لا يقتله شيء، مرض عضال متى حلّ حيًّ على التأقلم وانتهى، لا خيار أحسن. سرطان عاطفيّ لا يقدر عليه ولا حتى علاج الخيانة الكيماوي.

تقول الخيانة: «لقد تزوّج المعشوق!»

يردّ السرطان: «حمدا لله أنّ هناك شيئا يسمّى طلاق!»

تستفزّ الخيانة: «بل وأنجب المعشوق!»

لا يثور السرطان: «سأربّي أولاده!»

هكذا حبّ الأحياء للحياة، سرطانيّ.. نعشقها ونحن نعلم أنّها تزوّجت الموت وأنجبا لكلّ واحد منّا قبرا يربّيه، حتى عندما يكبر القبر.. يلتهم مربّيه.

وساد الشتاء على الفصول، واللّيل على النهار..

وسادت الدموع على اللّغات والأنّات على الأصوات..

وساد الأسود.. على الألوان.

الإغماء حلّ مؤقّت، كالنعامة تغرس رأسها، لن ترى شيئا، لكنّها لاحقا ستشعر بكلّ شيء..

والإغماء ليس خيارا، أجسادنا مبرمجة على سلوك النعامة في مواجهة الخطوب، لحظة انقطاع مؤقّت تصون بها استمراريّتها من الانقطاع التامّ، علما أنّ صون الاستمراريّة ليس خيارا هو الآخر.

عجيب أنّ الحياة لفظة مؤنّثة، كان المنطق ليسجّلها على أنّها ذكر وهي بكلّ هذه القسوة، يبقى أنّ في الأجواء المشحونة التي لا تهدأ أبدا ما بينها وبينه، بعض المنطق أخيرا.

وقسوتها تفرض عليها ألا تتغيّر لأجل أحد، كأن تلين للين جلود البشر مثلا، بل تعمد إلى جلد الجلود الّلينة، فإمّا أن تخشوشن هذه الأخيرة.. أو تموت. والموت كما الإغماء والاستمراريّة ليس خيارا أكثر إتاحة منهما، وإلّا كانت القاسية شهدت فرار الجماهير من تحت سوطها نحوه، على أنّه مقارنة بها ترف ورفاهيّة.

أليس الشعور بالألم ذاك الشعور الذي استعبد الإنسانيّة من الأزل وإلى الأبد سيظلّ مستعبدها؟

إنّنا رهائن أجسادنا وأجسادنا رهائن ضعفها..رهائن عجزها.

رأت صورا كثيرة، كلّها له.. الالتفاتة التي قدّمتها له وعرّفتها به، أوّل مشهد، أوّل ابتسامة، أوّل كلمة: «شكسبير..»، ثمّ صور هي بمثابة الأفكار الجزئيّة

لمجمل قصّتهما، زجاج قُذف بحجر فانفجر وطارت شظاياه، كلّ شظيّة أحدّ من أختها سواء عكست بسمة أو عكست دمعة.. لقصص الحبّ وقع على النفوس، لا تنافسها على رتبته وعدد نجماته قصّة، ما السرّ وراء ذلك؟

أوَ لا يمكن أن يكون السبب أنّها تستضيفها القلوب، والقلوب هذه التي تقرع طبول الحياة؟

عادت صورته وهو يبتعد، وهو عاد، وهو يرتدي البدلة السوداء، وهو يقترب، وهو يبكي، يضحك ملء فيه وسط بدلته السوداء، يلتقط لهما صورة على مقربة من برج «إيفل»، يأكل ويُشرِكها، يرفع الطرحة عن وجهها وتدوّي الزغاريد، يخبرها عن اسمه لأوّل مرّة: «أُحُد».. وتسمع صوتا مجهولا يردّد اسمه في قاعة المحاضرات كأنّه الصدى: أُحُد، أُحُد، أُحُد.. ويحلّ محلّ الاسم المنطوق رقم منطوق لصوتين معلومين: «العاشرة والنصف»، ويعود يقاطعهما الصوت المجهول: «أُحُد»، وتختلط الأصوات: «أُحُد»، «شكسبير..»، «العاشرة والنصف واشتقت إليكِ»، «ساعة الوفاة: العاشرة والنصف»، «العاشرة والنصف»، «العاشرة والنصف»، «العاشرة والنصف»..

لم يصمت ذلك المنبّه داخل لا وعيها حتى أخرجها إلى وعيها، كي تستلمها وترحّب بعودتها إلى واقع يعوذ الحنظل بمرارته من مرارته، صور هي من الماضي القريب، القريب جدّا.. قفزت من صُرّة الذاكرة متتابعة خنجريّة هائجة تطعن كلّ ما يعترض سبيلها من ذرّة إدراك حتّى أدمت الشاشة، ففقدت على إثرها السيطرة على جسدها، ما صارت إلّا متفرّجة عليه، على ما يعرض عليها من حركات مخيفة كأنّه خلسة دون أن تعلم، كان يتلقّى من وراء

ظهرها دروسا على يد الصرع، وها هو سنحت له الفرصة أن يباغتها بها ويستعرضها على دهشتها.. ماذا يحدث؟

«ماذا يحدث؟»..

السؤال الوحيد والكلام الوحيد الذي تبقى تجيده العقول البشرية لمّا تتجبّر عليها النوازل، تنحني، تقلّص من امتدادها كسلحفاة أو قنفذ في مواجهة الخطر، تحتمي بيديها وهي تصرخ: «ماذا يحدث؟».

ولكن لا يجيبها أحد، ولو أجابوها ما فقهت كثيرا ممّا يقولون، حتّى تجيب نفسها.. حتّى يجيبها الزمن.

ثبّتوها وحقنوها وعادت إلى الصور والأصوات الأولى، إلى أُحُد طالب وعريس.. إلى منبّه العاشرة والنّصف.

***

مرّت ساعات قبل أن تستفيق ثانية، وليتهما الحياة والموت يكفّان عن تجاذبها، كلّ واحد منهما متمسّك بطرفه منها لا ينوي أن يفلته للآخر، ليتها الحياة تستسلم للموت وتكفّ عن عنادها فتترك يدها لرحمته يمضي بها بعيدا.. بعيدا عن شلّالات نياجارا من ألم، كانت تسقط بلا رحمة، بتدفّق قاتل، دفعة واحدة، على فوز الحياة على الموت فيها.

ما لي وما لك أيّتها الحياة؟ ماذا تريدين بعد؟ أما اكتفيتِ؟ أما لكِ غيري حتّى تفرّغتِ لي كلّ هذا؟

تمالكت نفسها، لن تجني من الصراخ والتخبّط حتّى وهما يعملان عمل صافرة الطنجرة سوى حقنة أخرى، فتخدير آخر، وهذا كانت لترتمي في أحضانه كما لو كانت أحضان أُحُد لو أنّه كان قادرا على رحلة طويلة.. لو أنّه كان بُراقا أو تنّينا مسالما أو طائرا سحريّا، فيطير بها من كلّ هذه الأرض القبيحة الحزينة وزمنها الحقير البائس.. لكنّه مجرّد غفلة، مجرّد ضربة بقلم، اختفاء يشكّ صاحبه في أنّه أخفاه أو أخفى عنه شيئا.. ثمّ ما الفرق بين كلّ هذا السواد والحداد الذي اكتساه كلّ شيء وصبغ كلّ شيء وبين ذلك المنبّه المشوّه المرعب؟ لا فرق بينهما.. إنّهما توأمان قبيحان، كلّما حاولت أن تفرّ من أحدهما نحو الآخر، ما وجدت نفسها إلّا تعاود الفرار من المفرور إليه صوب المفرور منه.

إنّ الألم قويّ، قويّ جدّا.. قويّ حدّ الغثيان، حدّ القشعريرة، حدّ الصداع، حدّ الصرد.

ضمّت جسدها إليها واحتضنت نفسها وما شعرت بشيء من دفء ولا تخفيف.. عوزت والدتها، أن تلفّها بذراعيها، ألّا تُخرجها من صدرها، أن تدثّرها وتزمّلها جميعا، أن تعيدها إلى بطنها!

هل يُعقل أنّ أُحُدا مات، بما معناه مات؟ هل صحيح أنّها لن تراه مجدّدا؟ إلى الأبد؟ لن تستطيع أن تعتذر إليه؟ ولا أن تجلس إليه؟ ولا أن تحدّثه؟ هل تُعقل نهاية كهذه؟ هل تُعقل نهاية فيلم دام خمس دقائق؟ من ينتظر نهاية فيلم بعد خمس دقائق من المشاهدة؟! من يلتحق ويشاهد فيلما دام خمس دقائق إلّا عالم بغدر زمنه؟ ألم يبق أمل ولو ضعيف هزيل أنها قد تراه يوما آخر؟ بعد عشرين سنة؟ أو حتى ثلاثين؟ ولو.. مع امرأة أخرى؟ ما هذه

الحياة؟ هل لها دستور؟ أم لها قانون؟ هل تعلم هذه الحياة أنّ هذا الرجل هو كلّ من أحبّت من الرجال؟ هل تعلم أنّها سنواتٌ زمن الفراق لم يُشجب من معاناتها يوم ولا ساعة؟ هل تعلم أنّه شهرٌ زمن اللّقاء لم يزد عليه يوم ولا ساعة؟

لقد كسر قلبها وحطّم روحها سفره عنها في الدنيا إلى امرأة وأرض أخريين، ماذا قد يفعل بها رحيله عنها إلى الآخرة إلى الحور والجنّة؟ كادت تشعر بالغيرة من صورة الحوريّة في فكرها تتودّد إليه، هذه شأنها غير شأن البدلة السوداء، غير شأن الفرنسيّة.. هذه أخطر بكثير!

أين ذهبت بها أفكارها؟! ولا كأنّها مسكوبة عقل متّزن لا يزال بخير، أيّة بدلة سوداء وأيّة فرنسيّة وأيّة حوريّة وأيّة غيرة؟ الرجل مات.. مات!

اندفعت روحها بجسدها المستلقي المستسلم إلى الأمام، إمّا أن يقوم بها أو تقوم عنه!

اقتربت الممرّضة منها وحاولت تهدئة ذلك الصراع القائم قبالتها بين جسد انهار وروح اتّقدت، فدفعتها جوري واندفعت.. نحو الرواق.

***

أمور كثيرة في الحياة كان عليها أن تعلم أنّنا بشر وفقط.. مجرّد بشر.

كانت تريد أن تراه، لكنّ الأخصّائية النفسانيّة التي عُرضت عليها حالتها أوصت بمنع قاطع.

في اليوم بعد الموالي لذلك اليوم الأسود، انضمّ أوراس، وعادوا جميعهم إلى الوطن، حتّى أنّ نيل صار يفكّر بجديّة في عودة نهائيّة.

وهي في الطائرة، لم تشعر بأنّ الزمن الفاصل بين أوّل مرّة ركبت والثانية كان أطول من يوم واحد، ويكأنّه كلّ الذي كان ما كان غير حلم جميل دام عمر قيلولة قصيرة ثمّ استيقظت على..

لا تدري علامَ استيقظت، لم تعد واعية، لم تكن تبكي، كانت صامتة وعلى عينيها غشاوة من بله.

كان جميع أحبّائها بانتظارها.. لقد عادت، قبل أيّ شيء آخر.

في بيتهم، صاروا جوقة دموع تعزف الحزن في صمت، إنّ للحزن لرهبة تهابه بها كلّ الأصوات..

التي كانت غرفتها ورجعت غرفتها لم تتغيّر، هي من تغيّرت، لقد وجدت لها نمطا حياتيّا جديدا وجدت فيه مسكّنا قويّا لآلامها.. الهروب من الحياة. انقلبت تنام جلّ اليوم فكلّ اليوم فأيّاما متواصلة، لا تخرج من غيبوبة إلّا وترتمي في أحضان أخرى، لم تكن بتلك الطريقة تفرّ من غيابه فقط، لأنّه على الأقلّ هناك حيث لجأت، ما كان يغيب أبدا، كانت تراه.. واقفا هناك، يرتدي نفس البدلة، غير أنّ هذه البدلة بيضاء ناصعة، ذات بشرة أنصع من بدلته وابتسامة أنصع من بشرته، ويحمل في يده وردة زبرجدية.

لكنّها الحياة، حتى أحلامها لا تخلو من العيوب..

كلّما ركضت إليه، ابتعد كما لو كان يمتطي بساط الريح، واختفى.

وتستمرّ الحياة..

عادت آستر إلى الشاطئ تقطر ماء، يرتعش جسدها داخل ثيابها المبلّلة وتصطكّ لذلك أسنانها، أخذت منشفتها تغطّت بها ثمّ جلست قرب جوري وهي تضمّ المجفّفة، التفتت إليها وبشفاه مال لونها إلى الأزرق البنفسجيّ سألتها:

- لماذا لم تنزلي للسباحة؟ المياه منعشة رائعة هذا الصباح.

كانت جوري تنظر إلى البحر نظرا متّصلا متواصلا خاشعا مُجِلّا وَلِها، لقد كان يشفيها النظر إليه، يمتصّ بمدّه من حزنها، راجعا به كلّ مرّة في جزره، كي يودعه قعره فطيّ النسيان.. يا له من ساحب ساحر.

- يكفيني النظر إليه..

دارت آستر ببصرها عن جوري إليه:

- فعلا.. إنّه خلّاب.

عادت نظرتها إلى جوري:

- جوري..

انتبهت عن لهو أمواجه بالمصطافين وردّت بصوت يبغي استفهاما وقد صار وجهها لوجه صديقتها:

- أها؟

- كيف أنتِ اليوم؟

هربت نظراتها إلى الماء غاصت فيه مجدّدا ثمّ كأنّها ملأت منه قالت مازحة مستعبرة في آن:

- أنظر إلى البحر!

تخلّت آستر عن منشفتها ووضعت يدها على ظهر جوري:

- لا عاش الحزن أختي، أنت أقوى منه بإيمانك.. ماذا نفعل؟ هذا نصيبنا أنا وأنت، ألّا يبقى لنا من رأس الوردة وقد نثرنا كلّ بتلّاتها على رأسيهما، إلّا صلعها والأشواك.

انكسرت جرّات الماء داخل عينيها:

- لا آستر لا! سامحك الله، كيف تساوين بين أُحُد ونيل؟

اقتربت آستر منها وضمّتها بذراعها:

- آسفة، آسفة.. فعلا لا مجال للمقارنة، ماذا دهاني أنا؟ ابكِي حبيبتي، لا بأس أن تبكي، إنّ البكاء خير مواسٍ، وإنّي أفتقده لحالي.. انظري إنّي أدعى للرثاء منك، تبكين رجلا أخذه الله منك، وبكيت رجلا أخذته امرأة منّي.. من منّا أحقّ بالحزن وأدعى لِأن يُشفق عليها وتُرثى؟

خرجت جوري من ضمّتها كي تخصّها بنظرة لا فيها تعجّب ولا فيها إعجاب، سألتها وهي تمسح عينيها:

- لا زلتِ؟

تنهّدت آستر وتعبث بالرمل تنثر منه على قدميها قالت:

- لا.. انتهى كلّ شيء جوري.

لم تصدّق جوري ما سمعته:

- انتهى كالموت أم هي نهاية لها نهاية؟

وهي تنفض حبّات الرمل العالقة بين أصابع يديها، ردّت آستر كما لو أنّه البحر من سأل:

- بل أكثر موتا من الموت، فلو أنّ الموت بداية لنهاية، فقد حظيت أخيرا بنهاية لتلك النهاية.

كانت جوري تابعت كلّ حلقات مسلسل انتظار آستر، ثمّ بمصابها سهت عن صديقتها كثيرا، حتّى فاتتها الحلقة الأخيرة منه. قالت كاسفة أنّها ما استطاعت أن تكون بجانبها في الوقت الذي كانت الأخرى بجانبها لا تبرحها:

- فلتغفري حبيبتي، وددت لو أنّ الدهر جنّبني نوائبه لكن..

وعادت اهتاجت عينها.

قاطعتها آستر:

- ماذا تقولين جوري؟ واللّٰه لا عذر لمن لم يعذرك.

تابعت على أمل أن تصرفها بحديثها عن دموعها:

- ثمّ أنا قصّتي أهلكها الدهر، لقد عمّرت أكثر من اللّازم وكان لا بدّ لها من ميتة.

أضافت بما اعتبرته عزاء في السياق:

- في الأخير، كلّ شيء هالك إلّا وجه اللّٰه.

لا.. لم يصرفها حديثها عن دموعها، بل استرسلت فيها وبدت كأنّها على وشك أن تقع في إحدى نوبات الصمت الطويل التي لم يقدروا بشيء على استشفائها منها مذ عادت من فرنسا، إلّا أنّ آستر لم تستسلم، هي لم تأتِ بها كي تعود بها كما جاءت بها.. قالت مصرّة على إيقاظ طرفها من الحوار:

- ألا تريدين أن تعرفي ما حصل؟ في كلّ الأحوال لو لم تسمعي منّي أنتِ، فمن لي بعدك يا رفيقة عمري أشكو لها بعض بثّي وحزني؟ اخرجي من حزنك قليلا ولو إلى حزني، فرُبّ أحزان يُخرجن من الأحزان، كما تسلّي بعض الهموم عن هموم.

لم تخرجها من حزنها لكنّها نجحت في إخراجها من صمتها، قالت والبحر يُغري البصر والبصر جفّ فجأة وتحدّى البحر:

- ما دامت سيرة موت..

أطرقت آستر زمنا ضلّل أنّها غيّرت رأيها ولن تقول شيئا، مدت بصرها إلى البحر تقص عليه بنظراتها قصّتها، طفت حقيقة شعورها الدفين في عمق منها لا يبلغه سواها على ملامح وجهها، فتجلّى حزنها أحلك من حزن جوري، نزلت دمعة واحدة زلّت من عين واحدة، وراحت تسير متمهّلة على خدّها، حتّى لمّا بلغت حاجزه، قفزت مطمئنّة للرمل وامتزجت به:

- كنتُ بلغت مرحلة لا أدري حقيقة بماذا أصفها أو كيف أصنّفها، أبسط صفة تحضرني الآن أنّه انتظار خلا من ذرّة المنطق ذاك الذي أدمنني.. مزلقة غير منتهية، دوّامة تطمح إلى الديمومة، متاهة وفي نفس الوقت مقبرة لمن يدخلها، تيّار مائي جارف نحو تيّار مائي جارف نحو تيّار مائي جارف نحو اللانهاية، وهذه شبه النّهاية، أمّا البداية فلا تجهلين، كنتُ إبّانها أصغر سنّا أي أقلّ تجربة، أي على قدر من البراءة، أي على قدر من السذاجة.. كنتُ أمشي نحو محاضراتي، ثمّ وأنا أمشي، عثرت في طريقي على مخلوق صغير محبّب يدخل القلب بلا استئذان أو حاجة إلى قرع الباب، فأثار في نفسي نفس الذي تثيره رؤية صغار كلّ المخلوقات من رغبة في الضمّ وشعور بذوبان كلّ تشنّج وقدرة على المقاومة، فما قاومت جاذبيّته وحملته معي وعدت به إلى بيتي، وهناك جعلت له مكانا في القبو، ورحتُ أُطعمه. ثمّ ما لبثت أن بدأت أتعوّد عليه، وسرعان ما تعلّقت به، وهو ينمو برعايتي وحرصي واهتمامي وينمو، وينمو تعوّدي عليه وتعلقي به وتمرّ السنوات، إلى أن صار حبيبي الصغير كبيرا، أكبر من أن أخرجه من القبو وأكبر من أن يبقى فيه إذ أكبر من أن تشتمل عليه حدود السقف، بل أكبر حتّى من أن أقترب منه، تغيّر وآض إلى غول لن يتردّد في التهامي لو اقتربت منه، وأصبحت أنا في مأزق وورطة وكرب، لا أدري ما اسم هذا المخلوق ولا كيف السبيل إلى

الخلاص منه، فسألت وأجابوني أنّ ذاك الحبّ، منحة وبركة لزوجين لو أخذاه وتبنّياه سويّة، محنة وعذاب على فرد لو حمله وكفله وحيدا. لكنّني علمت ذاك متأخّرة، متأخّرة جدّا، فقد كان ذاك المخلوق الناكر للجميل يضجّ ولا يهدأ، يتوعّدني بصيحاته التي كانت تدركني أينما من الأرض ابتعدت، ويعدني أنّ نهايتي ستكون على يديه، أو بين فكّيه! هناك.. فررت إلى الملك القويّ، أمان الخائفين وناصر المظلومين والذي لا يضيع أجر المحسنين، شكوت إليه همّي ورفعت إليه مظلمتي وقد أوقعني الانتحاب أرضا، توسّلته الجوار والغوث، ثمّ انصرفت مطمئنّة.

وما لبثت شيئا بعد الشّكاة حتّى حلّ يوم فتحت في ساعة من ساعته كالعادة حاسوبي، وكالعادة طلبت صفحة نيل، لكن كما مخالف للعادة، وجدته خرج عن صمته الذي عهدته لسنوات مستوطنا على صفحته التي لعلّي كنت زائرتها الوحيدة، وجدته أخيرا كتب شيئا، لا هو شعر ولا هو نثر، لكنّه كان أبلغ من الاثنين ولو اجتمعا، كان عفويّا فأصدق، وكان مهدى لزوجته. في تلك اللّحظة، سمعت صرخة قويّة دوّت حتّى خبطت بسقف السماء، طارت لشدّتها الطيور من الأشجار، وفزعت لحدّتها الوحوش من الأوكار!

كان الملك العادل رمى برمح، ما أخطأ قلب الغول الجائر.

حان دور جوري أن تواسيها بيدها على ظهرها، وهي تفكّر أنّ غدر الرجل فعلا قد يكون أفظع من موته.. قالت:

- لكنّك كنت تعلمين أمر زواجه؟

تاه بصر آستر وهي تردّ:

- لا أدري.. كنت أعلم ولا أعلم، أعلم أنّه تزوّجها ولا أعلم أنّه استأنس إليها، وهناك فرق.

- ما الفرق؟ الإنسان لا يتزوّج إلّا من شخص استأنس إليه.

- لا، ليس دائما جوري.. إليكِ أُحُد رحمة الله عليه، ما كان تزوّج من تلك الفرنسيّة هياما بها أو رغبة في مشاركتها الحياة، إنّما هناك اعتبارات أخرى.

صمتت جوري، صار رأسها يعاني انفجارا سكّانيا بين أفكار وتساؤلات من وراء تلك التجربة المريرة، فلمّا تهمّ بتوظيف بعضها، تشعر بها ثارت كلّها مرّة واحدة تريد أن تقول كلمتها وتدلي بشهادتها، ما يبثّ الفوضى في عقلها الذي قد يشهد حالات من الشغب، ويصبح من الصعب جدّا أن تفهم شيئا وسط كلّ تلك الجلبة. علا صوت جملة بين الحشود، فاستطاعت أن تميّز هدف حروفها ومبتغى كلمها، قالت بصوت من يحدّث نفسه والدموع تعصر العين والقلب تعصره الحسرة:

- إنّ في قصّتي لعبرة لمن يعتبر..

ارتبكت آستر، كانت تقصد الإشادة بقلب أُحُد فلم تنتبه أنّ الحدّ الآخر لسيف قولها كان استنكار قلب صديقتها.. استدركت:

- وفي قصّتي وفي كلّ قصّة، وفي كلّ الحياة عبرة لمن يعتبر.. ألسنا نخرج منها مجرّدين عراة من كلّ ما منحتنا يوما إلّا من عبرة نسرقها؟

تنهّدتا في نفس الوقت.. ثمّ أضافت آستر:

- تعرفين ما بيت الداء في جسد العلاقات العاطفيّة؟

لم تنتظر إجابة احتجزها الصمت، ردّت على نفسها:

-إنّ كلّ شيء من حولنا يغلِّط في تعريف الحبّ أجمل ما قد يحصل معنا على الإطلاق، هكذا ودون شروط على حصوله أن يستوفيها مسبقا. وتداول الناس هذا الخطأ الشائع كما تداولوا يوما الخرافات والأساطير حتّى صدّقوها وآمنوا بها، والفضل كلّ الفضل في انتشار هذا اللّاوعي يعود إلى نوعيّة الغذاء الذي يقدّمه شطر من القنوات الفضائية لعقولنا، كلّ هذه الدعاوى الصريحة والخفيّة إلى تقديس الجسد البشري على أنّه قالب الحبّ، من قصص حبّ وهميّة وملتهبة حكر على عارضي الأزياء والعارضات وحتّى برامج الثقافة الصحية. لا بأس فهمنا أنّ العقل السليم في الجسم السليم، لكن ماذا عن «العقل السليم لجسم سليم»؟ من يروّج لها هذه؟ ما فائدة أن نغذّي أجسادنا بالطعام الصحي وكلّ ما هو «بيو»، عندما يغذّون عقولنا بالسموم؟ للأسف.. إنّه زمن «يا منمّق الواجهة كيف حال البضاعة؟».

بدا الحديث كأنّه استقطب اهتمام جوري، فتابعت آستر:

- اليوم وقد عاد إليّ صوابي بعد أن عاد عقلي استقرّ بعد أن عاد قلبي إلى سكونه وهدوئه الأوّل، عادت لي بكل أولئك العُوَّد المرحّب بهنّ القدرة على أن أزن الأمور بالقسطاس المستقيم، أخيرا.. وبعد طول انتظار، عادت. وبعودتها حمدا لله على عودتها سالمة غانمة، عدتُ أرى كلّ شيء في مكانه وبحجمه وألوانه، وكم ذهلت أوّل مرة أزحت فيها بعد سنوات نظّارة الحب عن عيني! إنّه يعمل عمل المرآة الجانبيّة من جهة السائق للسيارات، حيث منقوش عليها:

«الأجسام التي تراها أصغر وأبعد ممّا تبدو عليه في الواقع»، فعلا.. في آخر المطاف، من هو نيل؟ لقد كذب عليّ الحبّ طويلا أنّه أكبر وأقرب، في حين ما كان في الواقع إلّا أصغر وأبعد.. والحبّ لا يشوّش الرؤية على العين فحسب، بل التفكير على العقل كذلك.. أيّة حمقاء كنتُ وأنا أعجز أن أفهم أنّ إدبار الرجل معناه ببساطة.. أنّه غير مهتمّ! وأيّة خرقاء وأنا لا أستوعب أنّ انتقاله المباشر إلى علاقة أخرى بل رسميّة مفاده بأبسط من البساطة الأولى أنّني في عمليّة المقارنة، هذا لو كانت هناك عمليّة مقارنة أساسا، فلعلّي كلّي على بعضي ما ارتقى شأني إلى ما يستحق أن أدخل به مرحلة التصفيات، فلو فرضا كنت من المشتركين النهائيين، فالأكيد أنّي ما فزت باللقب.

نطقت جوري أخيرا:

- فإذن وافقتني واختلفتِ، الإنسان لا يدنو من ارتباط مصيري بلا حدّ أدنى من الألفة؟

تبعثرت آستر بين رأييها المتناقضين:

- لازلت أصرّ أن ليس بالضرورة، لكن بعد مراجعة التّقارير لعلّها تتبدّى الحالة الأعمّ والأكثر انتشارا.

تيقّظ طرف جوري من الحوار:

- هل تعتبين عليه؟

خرجت زفرة آستر صائتة، ثمّ قالت وهي شاردة تسبح في بحر الأفكار وتغوص تنقّب عن جواب ما خطر لها سؤاله قبلا:

- هل أعتب عليه؟.. الجواب معقّد لو أنّ السؤال بسيط، أختي. الجنس البشري على غرار الأجناس الأخرى جنس متنوّع مزركش مبرقش، متشعّب متشبّع بالألوان، ولا أقصد من حيث أشكالنا فقط، فعوالمنا الداخليّة هي المسؤولة الأولى عن هذا الفضاء الرحب من الاحتمالات في الفوارق الخارجيّة، ولهذا صعب، صعب جدّا أن تحكمي على إنسان أو سلوكه.. عنّي أنا، ابتداء من اللّحظة التي نقرّر فيها أنّنا منتقلون بإعجابنا من مرحلة الخواطر إلى مرحلة الإشهار بأيّة طريقة كانت، فإنّنا لو أصحاب ضمائر نعدّنا ملتزمين فملزمين بكلّ ما يترتّب عن ذلك الالتزام الذي ألزمنا به أنفسنا، لأنّنا ما عدنا وحدنا، بل دخل اللّعبة شخص آخر، شخص لا يقلّ إنسانيّة عنّا، شخص لعلّنا مَن استدعاه، فماذا نكون لو لبّى وانصرفنا؟ حتّى أنّنا في ديننا غير مؤاخذين بما يجول في رؤوسنا من أفكار ونوايا، على عكس ما تجرح حواسنا من أبسط الأقوال وأهون الأفعال.. خذي مثلا مجرّد النظرة، هذه التي يستهين بها أغلب الناس، هذه كالكلبة، ولست أهين لو أنّ الناس تستهين، ترويضها يمكّن صاحبها من السيطرة عليها فالسير بها في الأماكن العامّة والمكتظّة لأنّها مسالمة أليفة، أمّا لو هي مروّضة صاحبها وسائقته، فستجرّه إلى المآزق والآخرين إلى المهالك، حيث ستنفلت لا محالة وتهاجم، وقد تنقضّ وقد تعضّ وقد تقتل!

تهكّمت ملامحها في فترة استراحة ثمّ واصلت:

- من أحدّث أنا؟ ومن يسمعني أنا؟ إنّ أهمّ ما انجرّت عنه مآسي البشر هو أنانيّة البشر.. كلّ واحد مشغول بنفسه كيف يسعدها وكيف يرضيها وليت شعري كانت ترضى، ثمّ بعده لِيُرسل على البقيّة حاصب أو لِتُخسف بهم

الأرض! شعار جحا لمّا سُئل عن موعد الساعة، قال: «يوم أموت أنا».. هكذا تنسينا لحظات الهناءة عندما تتوهّج أحزان الناس التي لا تنطفئ، تُغَيِّب عن أذهاننا أنّنا ربما وراء أحزان بعض الناس، تُغَيِّب عن أذهاننا ولا يغيب عن أذهانهم.. ولا نغيب.

كان الجواب أطول من أن يكون واضحا، فكرّرت جوري السؤال بصيغة لا تحتمل مواربة:

- أفهم من كلامك أنّك تعتبين عليه؟

ابتسمت آستر لشعور بأنّها اطمأنّت إلى جواب:

- لا.. ليس حقًّا، ربّما قليلا في جزئيّة أنّه أوهمني به يحمل لي شيئا ما كان يحمل لي منه شيئا، فبلاني وكان له أن يعفيني، ومع هذا لست أحمل له في صدري ملامة عظمى، إذ لا أعتقد أنّه تعمّد ضرّي، ثمّ الضّار اسم من أسماء الله الحسنى والإنسان أضعف من أن يضرّ، ولكن أعتقد وأميل بشدّة إلى هذا الاعتقاد، أنّه ولأنّه تجاوزني بيسر فخالني تجاوزته بنفس اليسر، كما عجزتُ عن التصديق أنّه تجاوزني بكلّ ذلك اليسر لأنّني عجزت عن تجاوزه لا باليسر ولا بالعسر، وهنا نعود إلى قضيّة الأنانيّة، كلّ واحد فينا يرى بعينيه طوال الوقت، وهذا طبيعي ومنطقي، لكنّه أنانيّ أيضا.

أكبرتها جوري:

- لله أنتِ من قلب يا صاحبتي! وأنا التي كدّست له في قلبي العداوة والبغضاء غيرة عليكِ، تجلّيت أنتِ سامحتيه..

استخفّت عبارات وجه آستر:

- سامحته صيغة مبالغة، بياض ناصع.. فيما قصدت أنّه لا سواد لي تجاهه، يعني أنّني أراه بعين رماديّة. حسنا، لا أنكر أنّني رأيته يوما ملكا ويوما آخر شيطانا، لكنّني اليوم أراه إنسانا، وذاك الكلام وهذا السلام.

اندهشت جوري:

- لا، عدنا والعود أحمد!

تقنّع وجه آستر بالذكاء، ثمّ قالت ولم تنزع عنها ذاك القناع:

-للحبّ خيال الأطفال وتلفيق المفترين، يريك كلّ ليلة فيلما مختلفا فيه أنتِ السيدة والحبيب مسود، ولأنّنا نستمتع بهذه الأفلام التي لا أبطال لها سوانا وكاتب السيناريو هوانا، فإنّنا لا نتوقف عن مشاهدتها آناء الليل وأطراف النهار، خاصّة وأنّها لا تكلّف شيئا، فشاشة التصوّرات الذهنية كلمح البصر فتحها، والتصوّرات الذهنية كحاتم الطائي الخيال يجود بها، وهكذا حتّى الوقوع في الفخّ، فخّ الإدمان، فخّ المالانهاية، ويصير أقصى المنى عندها.. هو النهاية. وطريق الشفاء قبل النهاية طويل، حتّى تستقبل ملوّحة رايات الّلامبالاة.. نعم، اللامبالاة. يسعدني حدّ النّشوة أن أشعر اليوم بأنّني ما عدتُ أكترث.. هل أخطأ في حقّي؟ أم كان من حقّه؟ هل أحبّني فعلا؟ أم لم يحبّني كافيا؟ هل أحبّها فعلا؟ أم أحبّها كافيا؟ هل أحبّها أم ناسبته؟ هل لم يحبّني أم لم أناسبه؟ كلّ هذه التساؤلات التي ملأت رأسي بالإلكترونات والنيترونات زمنا ما عادت تعنيني ولا أبحث لها عن إجابات كما كنت، فلتمكث لو أحبّت

الطواف حول عقلي، فلتمكث، أو لترحل لو شاءت، باب الكعبة لن يُفتح مجدّدا، ولست أبالي بها إلّا كما تبالي الكعبة بالحمام الحائم حولها!

انبهرت جوري لكنها لم تقل شيئا واكتفت بالابتسام، أمّا آستر فانتهت من التحمية وتلقّفت التمرين:

- إنّ في مستوصف الانتظار لإبلالا من تبعيّة الحبّ الهارب، فالانتظار مخلوق من وقت، والوقت يمنح فرصة للتفكير. كنتُ أريد نيل، وأنا أعلم أنّني وإيّاه مختلفان وغير متشابهين وطريقان مستقيمان لا يلتقيان. أردته وفقط، لا خطّة ولا مشروع ولا يصلح ولا لا يصلح، إرادة مغلوب عليّ في أمرها، ما كنتُ فكّرت في عمق الأمر، لتسارع الأحداث من جهة وعند تساقط الأحداث يضيق الوقت، فنحن لا نعي جيّدا وقائع اللّحظة الراهنة حتّى تمرّ، وفي استذكارها تتبدّى لنا أمور كثيرة ما كنّا انتبهنا لها خلال حصولها، ومن جهة أخرى لأنّ الحبّ يقيّد التفكير ويضني الإنسان بحاجة جديدة كان في غنى عنها وصار لا غنى له عنها، كما يوجب مرض الربو بخّاخته وداء السكري حقن الأنسولين. كنت أريده لأنّي كنت أحتاجه، حاجة المدخّن إلى سيجارته، يشقّ عليه الاستغناء عن أذاها ومع هذا ليس راضيا عنها ولا سعيدا بها، وكم يودّ أن تخرج من حياته، وكم حولق عليها من ساعة أدخلتها حياته! كنت أريده كما يتوسّل المدمنون مخدّراتهم.. وليس كما أرقى من مثل هذه الرغبة.

كانت جوري تنظر إليها وكلّها آذان صاغية، لقد تعلّمت آستر الكثير وصقلتها تلك الخيبة العاطفيّة.. الإنسان الناجح يعرف كيف يستخدم كلّ ما يقع بين يديه لأجل أن يستفيد منه، كيف يحوّر أبسط الأمور لخدمة مصلحة خاصّة

أو عامّة، حتّى الفشل لا يسلم من طاقته الإيجابيّة، تراه لا يزال يقلّبه بين يديه إلى أن يصنع من عجينه تحفة ما.. قالت جوري:

- بماذا تشعرين اليوم؟.. أقصد بعد الحبّ؟

سُرّت آستر أنّها أفلحت في استدراج اهتمامها وإبعاده عن حزنها قليلا، فشجّعها ذلك على مزيد من الخطاب، تأهّبت كمن على وشك أن يدلي بتصريحات هامّة ثمّ قالت:

- عشت قبل الحب وعايشت أثناءه، وها أنا ذي أشهد ما بعده، فأنا كمن عاش السلام ثمّ عانى ويلات الحرب، وأخيرا كان محظوظا بأن لقيه النصر على المحتلّ لا يزال على قيد الحياة.

انتقلت إلى نبرة أكثر شاعرية:

إنّي أصبحت حسبي من الحياة غناي عمّن استغنى عنّي.. ما لي وللحبّ أنا؟ نجوت من الحبّ أنا! ها أنا من جديد سيدة نفسي أمة ربّي لا غير، في غنى بربّي عن كلّ من سوى نفسي، قسما إنّه لكاذب من قال عن الحبّ أنّه غير داء، وما أكذب منه إلّا من قال عن غيابه أنّه غير هناء، كاذبان.. أو جاهلان.

هل كنتُ إلّا أسحق الأزهار وأرتطم بالأشجار؟ فإنّي اليوم أحيّيها زهرة زهرة، وشجرة شجرة..

وهل كان ليلي إلّا الأرق؟ وبات النّجوم وبات القمر، فما رأيي في الحبّ ختما إلّا يرادف: أعوذ، أعوذ بربّ الفلق!

أومأت جوري برأسها دليلا على عدم الاعتراض على القول، وقالت:

- معكِ حقّ، إنّه محض رِقّ ولا يُجنى منه شيء إلّا الشوك والضنك.

ثمّ أضافت بعد أن خطر لها تذكّر صرف وجهها تلقاء البحر، وصارت المواربة تُقرأ بوضوح في عينها:

- عقبال أقوامٍ أن يطولهم الفرج حتّى تتنفّس قدورهم بدورها الصّعداء زافرة انشراحها: «هكذا كنّا من قبل فمنّ اللّه علينا».

قرأت آستر بين السطور وفهمت، لكنّها مع ذلك استفهمت:

- من تريدين؟

تكدّرت جوري:

- من يا لهفي عليه لا أعثر من حظّه بك إلّا حظّ أخيه بي!

انتقلت عدوى الكدر إلى آستر فانحنى رأسها، وذبلت ولم تعلّق.

أحنت جوري صوتها لخَور صديقتها:

-قولي لي حبيبتي، ماذا ينقصه أوراس؟

لقطت آستر نظرها وقذفت به إلى عرض البحر:

- أنت تعجّزينني بسؤال لا جواب له، كان الأصحّ أن تسأليني ماذا ينقصني أنا؟

- لا أعلم بك بعد خالقك منّي، لا ينقصك سوى نتفة روح مغامرة، أفهم الحرص، أمّا أن يتطوّر إلى رهاب فهذا ما لا ينبغي أن نسمح بحصوله.. أوراس يستحق يا حبيبتي، يستحق.

هاجت آستر:

- فلأنّه يستحق!

ماجت جوري:

- وأنتِ تستحقّين!

هدأت آستر:

- ولأنّني أستحقّ..

هدأت جوري:

- فليلتئم جرح الاستحقاق إذن.. أمَا آن له أن يلتئم؟

شجنت آستر:

- إنّما يصير جرحا لو التأم.. لقد قرأت لكوليت خوري مقطعا أحببتها لأجله لشدّة ما طابقت أفكاره أفكاري، قالت: «أريد رجلا يحبّني لأنّ روحي امتزجت وروحه، ولأنّ أفكاري طابقت أفكاره».

هل ترين بأنّي لا أرى يا رفيقة عمري؟ أم تشعرين بأنّي لا أشعر؟ فاطمئنّي ولا ينشغل لك بال، لأنّي أرى وأشعر، وما أقوى حواسّي وإحساسي. أوراس رجل جبل، رجل حلم، لكنّه رجل من هذا المجتمع ومن هذه البيئة وبهذه الأفكار التي تتصادم وأفكاري، وأنا امرأة غير عموم النساء، مختلفة اختلافا لا أحسبهم عندنا يعتبرونه تميّزا، فأنا لا أحلم بذاك البيت الذي لي في كلّ شبر منه مسؤوليّة أخرى، أفضّل الحريّة، إنّها مشبّعة أكسجين، وهكذا على الأقلّ أضمن أنّني لن أموت اختناقا.

- هل تكلّمت معه بهذه الشفافيّة التي تخصّينني بها الآن؟ هل سبق أن حدّثتيه بصراحة أن هذه النقاط على الحروف، فماذا تقرأ؟ أم أنّك كالعادة تفكّرين بدلا عن المعنيّ بالأمر ومن ثمّ تخمّنين ردّة فعله؟ اسمعي منّي واسمعي منه وحدّثيه، اقذفي بأوراقك على الطاولة والعبي لعبة مكشوفة تكونين قد حدّدتِ قواعدها بالأسود على الأبيض، فمن رضي بعد ذلك فله الرضا، ومن لم يرض فعليه منّا السلام.

- سيرضى، جوري..

-فاللهم بارك!

- سيرضى لأنّه يحبّني لا لأنّه موافق.

- ما الفرق؟ ما دامت كلّ الطرق تؤدّي إلى روما.

- الإنسان لا يجني من حب شخص لا يشبهه سوى التضحيات والتنازلات والمزيد منها، فالحب بلا مباركة العقل جشع طمّاع لئيم، على قدر ما أكرمته

أهانك، ولا يقلع عنك إلّا وقد حوّلك إلى أرض جرداء كأنّه الجراد حلّ بها.. أعدّني محظوظة حقًّا أن خرج نيل من حياتي، أنا التي كنت مستعدّة لهدّ كياني لأجل أن يستقرّ كيانه مكانه، وهذا ما لن أرضاه لأوراس، أيّة زيجة هذه التي لا بدّ من أن تمحي أحد الزوجين حتّى تحمي الآخر؟ لا.. لعلّها جريمة لا يعاقب عليها القانون، لكنّني لن أرتكبها.

- تريدين منّي أن أرحمه من حرمان تفترضينه واقعا به لأجل حرمان هو واقع فيه؟ هل هذا ما تطلبين؟

- حسنا، تعالي نسقط الأقنعة ونكشف الحجب ونصارح أنفسنا قبل أن تصارحنا حقائق الأمور، لأنّ وقع صراحتها هذه يشبه فرقعة الكفّ على الخدّ، بالدرجة الأولى.. ماذا الرجل للمرأة في مجتمعاتنا غير سيّد تخدمه وحاكم لا تخرج عن طوعه؟ الزواج عندنا صفقة يبيعون المرأة فيها دينارا بكيس من القطع الذهبيّة، تدفعين طائلا وبصراحة لا أدري ماذا تكسبين بالمقابل عدا وسام التضحية يعلّقونه على صدرك، ومعنويّا طبعا لا حسيّا. أنانيّة، نرجسيّة، سمّني ما شئتِ إلّا كبش الفداء! لماذا عليّ أن أرتبط بأوراس أو غيره ممّن أنا في غنى عنهم؟ لماذا عليّ أن أتزوّج ما دمت لا أشعر بحياتي ينقصها شيء أو تشكو خطبا؟ فقط لأنّ كلّ الناس يفعلون هذا فلا يجوز أن أخرج عن القاعدة؟ أم لأنّني امرأة فلن آمن نبذ المجتمع إلّا وأنا زوجة وأمّ؟ فلينبذوني إذن! خير لي من أن أنبذ نفسي، لقد وجدت نفسي يوم أغمضت عينيّ وسددت بيديّ أذنيّ، هناك شعرت بالسلام كهبّة نسيم لعوبة تمتزج وروحي، ومذ ذاك قطعت وعدا على نفسي ألّا أقلّد دون تفكير، أن أقف كالسدّ الأخضر في وجه الانجراف، لا أريد أن أشعر وأنا على فراش موتي أنّني ما عشت إلّا

حياة غيري، حياة عياريّة لست أدري من صمّمها وهذى أنّها تناسب كلّ المقاسات، بل أريد أن أفتخر بجرأتي على المضيّ عكسا طاعة لإرشادات أفكاري وقناعاتي، نعيش الحياة مرّة واحدة، فهي ورقة الأوساخ وهي ورقة الإجابة أعلم، يبقى أنّه جبنٌ لو ردعنا هذا عن المرح بالأقلام عليها حتّى الجنون، أنا لا أخشى التجارب الجديدة التي لم يخضها أحد قبلي، ولكنّي أخشى بل أرهب التجارب المهترئة التي أبلاها الناس لشدّة ما خاضوها قبلي، لأنّني أجهل نتائج الأولى ويغريني فضول الاستكشاف، فيما تسبّبت لي في عقدة نفسيّة كارثيّة نتائج الثانية.

استعارت عرمرما من الهواء ثمّ ردّته، ثمّ زادت:

- سأرحل، جوري..

انتفضت جوري:

- ماذا؟

- سأرحل يا رفيقة عمري، سأرحل.

قامت قيامة جوري:

- كيف ترحلين هكذا؟ إلى أين؟ هل هو قرار وليد اللّحظة دفّقه سياق الكلام؟

ابتسمت آستر في حزن مطمئن، كانت واثقة أنّه القرار الصائب مهما كلّفها من ثمن:

- فوق هذه الأرض ما عادت لي حياة تختلف كثيرا عن حياة من هم تحتها، وأنا لديّ أحلام وطموحات غير معترف بها هنا، فأن تولدي إنسانة معقّدة في بيئة بسيطة.. هذا أمر معقّد ببساطة!

أدركت جوري أنّ ذاك كان اعترافا لا صرف قرار أرسلته الحماسة:

- إلى أين؟

-لستُ أدري بعد.. أفكّر في العودة إلى السعودية، فقد نسجت بعض العلاقات هناك لمّا اعتمرنا.

صارت جوري تقاوم دموعها:

- كثيرا عليّ أن أفتقد جنونك بعد أن فقدت أُحُدا..

أخذتها آستر في حضنها:

- آه يا رفيقة عمري الحبيبة، هذا لمصلحتنا جميعا، بابتعادي أكون وضعت أوراس أمام الأمر الواقع تماما كما وضعني نيل أمامه، إنّها أنجح استراتيجيّة شفائيّة، ولو أنّه يحزّ في نفسي أن أتخلّى عن رجل يحبّني بصدق برهن عليه، إلّا أنّني أثبّت تزعزع نفسي للفكرة مقنعة إيّاها أنّه شعور سيّئ لأجل غاية جيّدة. إنّني أتوق إلى بداية جديدة، أو كما يقولون بالإنجليزيّة «starting! fresh»، هذا ما أنا في أمسّ الحاجة إليه، ثمّ من قال بأنّني أنا القادرة على فراق حتّى الافتقاد؟ أرتّب أموري وتلحقين بي مع والديّ، فما أحوجك مثلي إلى التغيير حبيبتي، التغيير هو النسيان.

«النسيان»؟

هل كانت ترمي إلى نسيان أُحُد؟

لم تنبس جوري ببنت شفة، لقد رجعت إلى الصفر.. إلى نقطة الانطلاق.

بعد...

نقطة الوصول

أقبح ما في الحياة هو نفسه أجمل ما فيها..

ألَّا شيء يدوم فيها.

فتح باب البيت، ولج، ردّه ثمّ نادى:

- جوري!

لم يحظ بردّ فزاد صوتُه عُلًى لنداء ثان وهو يتقدّم في البيت:

- جوري!

هناك أطلّت من الطابق الأول عندما كان هو بلغ أدراجه:

- عدت مبكّرا حبيبي.

مقسّما عدد حروف الردّ على عدد الدرجات نحوها، قال أثناء صعوده إليها:

- أمضيت يومي مشغول البال، منقبض الصدر، قلَقا على أمّي.. هل لا تزال نائمة؟

ابتسمت جوري له، انتهى من الدرجات، تبسّم من ورائه مفاجأة سارّة، رحّبت به، صار أمامها بقبلة على خدّه، ثمّ بشّرته في حماسة تتوقّع وقع الخبر السار

عليه:

- بل استيقظت وطلبت أن تشرب وتأكل وتقوم وتمشي وتنزل إلى الحديقة، وهي الآن عادت إلى غرفتها وتكتب!

انقلع من مكانه وهرع يصدح حمده لله ويعيده حتّى أدرك باب الغرفة في أقصى نقطة من الطابق الأوّل، كاد يدفعه لولا تمالك نفسه في آخر ثانية لاحتمال داهمه: لعلّها عادت إلى النوم؟

كانت تدهورت حالتها الصحيّة في الأشهر القلائل الماضية.. الحقيقة أنّه مذ وعى عليها وهي تشكو بعض متاعب قلبها وتتابعه ببعض الأدوية الخفيفة، كانت دائما تقول أنّ داء قلبها لا دواء كيميائيّ له، ثمّ هي ما كانت تحبّ الأدوية أصلا، أو لعلّها ما كانت تؤمن بفوائدها إيمانها بأضرارها، كانت تردّد أنّه يكفي قراءة النشرة الدوائية لأي عقّار كيميائي حتّى نفهم أنّه ربّما وُجد لإصلاح عطب لكنّه هناك قطعا لإحداث أعطاب، وأنّ الشفاء الحقيقي يتوسّد قلبا يؤمن بالله ويسقّفه عقل لا يبالي بالحياة.

طرق الباب طرقتين خفيفتين قبل أن يفتحه ويرسل برأسه من ورائه يأتيه بالخبر اليقين:

- أمّي؟

سأل ظهر كرسيها الهزّاز يتأرجح في مواجهة باب شرفتها المفتوح على مصراعيه..

توقّف اهتزاز الكرسي وطلع رأسها عن مخبئه مشرقا لصوته فصورته:

- أُحُد! حبيبي الصغير تعال إليّ أمّي، أقبِل.

دخل مبتهجا ضاحكا لرؤيتها تحسّنت ولنعتها إيّاه بالصغير، جثا على ركبتيه بين يديها، قبّلهما وهي تجهر رضا قلبها عليه وتدعو رضا ربّها إليه:

- أسعدك ربّي حبيبي كما كنت بي برّا.

- اشرحي لي صدري أمّاه، كيف تشعرين؟

رجعت تتأرجح بكرسيّها:

- لا ضاق صدرك حبيبي، لا ضاق صدرك.. إنّما أنا صارت خلفي بعيدة في الخلف أيّام كان لي حقّ معاتبتها على نقصان في القوّة، اليوم هذا أقصى حقّي من العافية أراني استوفيته.

قاطعتهما جوري:

- أحسب أمّي قادمة، خالتي، فقد أعلمتها بأنّك قمت، وفور ذلك قطعت اتّصالي بها وهي تستعجل لسانها بكلمات لم ألتقطها كلّها، لكنّني فهمت أنّها قادمة على عجل.. تعرفينها.

ضحكوا ثلاثتهم وانضمّ جرس الدار الكبيرة يشاطرهم حبورهم.

استأذنت جوري قبل أن تخرج مسرعة:

- هذه حتما هي وصلت.

قام أُحُد أفضى الكرسيّ الذي كان جلس عليه مقابلا أمّه، هيّأه للمقبلة، لمّا عادت جوري مرفوقة بالزائرة التي ما لبثت نطقت:

- أخيرا استيقظت أيتها العجوز الكسول، كم أقلقتني فوق متاعب شيخوختي!

قهقهت، تحاملت عن كرسيّها حتّى تواقفت بمساعدة من أُحُد ترحيبا بالوافدة عليها وتلك تشير عليها بالعودة إلى وضعيّة الجلوس مناشدة إيّاها أن تبقى مستريحة، والأخرى تأبى إلّا أن تضمّها وتتبادلان القبلات الحارّة:

- أيّتها العجوز النشيطة، وأنا كم اشتقت إليك.

وصارتا تضحكان، وعادت الأولى إلى كرسيّها لمّا جلست الثانية على الآخر المهيّئ لها، وتواريا أُحُد وجوري، مخلّفين العجوزتين كأنّه دهر لا شهر الفاصل بين هذا الحديث وآخر حديث.

***

تبدّى اليوم مودّعا، ينزع عنه ثيابه الفاتحة وينزلق هادئا في منامته القاتمة، والحديث إلى الأحبّة لولا يُنهى لا ينتهي، ومجالستهم.. يا ليتها كانت لا تنتهي.

قامت الحاجّة أمّ جوري رغما عن محاباتها، رغما عن منى خليلتها وصفيّتها الحاجّة أمّ أُحُد التي رجتها أن تبيت عندهم تتسامران وتراجعان سويّة مجلّد ذكريات حافل. فالحاجّ أبو جوري وحده في البيت، ولا تحبّ أن تتركه ينام وحده في البيت، إنّها تحمل لهذا الشيخ الموقّر شعورا لا يوصف، تقديرا لا

يقدّر، وعاطفة ثقيلة جمعت قناطيرها المقنطرة على مرّ السنوات كالنملة الدؤوب لا تبرح المشغلة حتّى تفيض المؤونة عن الدار، أو كصنبور تنفلت عنه قطرة كلّ حين، لا يُقضى أجل إلّا وملأ دلوا أسفل منه حتّى ينضح.

اصطحب أُحُد حماته إلى بيتها الذي لا يبعد عن بيتهم شيئا يُذكر، كانت نهاية أمسية خريفيّة برودة، يبعث صَباها الشبم الحياة من جديد في كلّ حريق.

جوري حضّرت لحماتها عشاء خفيفا إذ تعرفها لا تقرب الثقيل من الطعام، وقدّمته لها قبل أوان العشاء، إذ تعرفها كذلك عوّدت نفسها على شيء كصيام عكسي، فلا تأكل بعد مغيب الشمس وحتّى الفجر.

كما اعتادت وعوّدت، غابت شمس ذاك اليوم أيضا، هل من يوم لا تغيب شمسه.. على الحاجّة أمّ أُحُد على سجّادتها تعطي ألحانا لقراءتها أذكار المساء، وعلى الحاجّة أمّ جوري تعدّ لزوجها حساء كما يحبّه، وهو معها يساعدها في بعض التقشير ثمّ في بعض الترتيب، قاصّا عليها حينا، سامعا منها تارة، باسما إليها مرّة، جذلا بتبسّمها أخرى، حتّى نضج عشاؤهما فجلسا رأسا لرأس وبينهما صحن مشترك سكبا فيه ممّا أعدّا، وراحا يقتاتان ويتحدّثان، ولا نهاية للحديث، فالحديث إلى الأحبّة لا ينتهي، كما لا نهاية للحبّ الحقيقي.

قاما مؤجّلين غسل صحنهما والقدر، مستعجلين بدل ذلك غسل أسنانهما، كي يمضيا بعد يوم آخر شاهد على تآلفهما وتحالفهما ضدّ خشونة الحياة، إلى غرفتهما. أعانته على تغيير ملابسه، ملأت كأسه له ماء لأجل حبّة دوائه استودعها لسانه وأسقته إيّاه بيدها، استلقى فجلست إلى جانبه كي تدهن له

صدره بـ«الفكس»، فقد كان للانقلاب الجوّي المفاجئ أثر عليه مبالغ في تبريده. كانت لمستها ترخي كلّ عضلاته، تفتّت دفعة واحدة كلّ مقت للحياة قد اعتراه يوما، ولو أنّها كانت تحبّذ النوم على صفحة كتابها، فهو كان لا أرهب إلى أرقه من صفحة وجهها، بقي نظره معلّقا ببسمتها تعلّق روحه بلمستها، لم تتغيّر كثيرا.. فقط قليلا، لقد صارت أجمل بقليل فقط، لكن.. «كيف استطاعت أن تخترق كمال الجمال أصلا؟»، تساءل قبل أن يغطّ في نوم عميق.

غطّته، قبّلت جبينه، ثمّ دلفت لشأنها، حان دور نفسها أن تهتمّ بها.

غيّرت ملابسها وجلست على طاولة الزينة تواجه وجهها، كانت إنارة الغرفة متوسّطة عقب أنّها طمست نور السقف، عقب أنّها وهّجت قنديل المنضدة الموالي لها دون الموالي لزوجها، الذي ما عاد يصدر عنه من صوت عدا ذاك الذي سببه احتقان الهواء في مجراه التنفّسي وبعض الشخير المتقطّع، وكلّها أعراض حلّت ضيفا ثقيلا على جملة طباعه المعهودة.

طريق الحياة طريق سريع، لا ممهّل عليه، وعليه مصفوفة أوراق لعب تنتظر الإشعار بالوصول..

لهبّة الوصول تميل الأولى ميلة تهوي بها على الثانية، تهوي الثانية على الثالثة، الثالثة على الرابعة، الرابعة على الخامسة! وهكذا دواليك.. حتّى تقعن كلّهن صريعات.. أوراق الحياة على ميدان الزمن، وما كلّ زمن الوقوع بزمن غير زمن الوقعة الأولى.

شعرت بأنّ الوقت توقّف، حطّ رحاله عند مرآتها، برك يستريح تحت ظلّ انعكاس صورتها.. أحبّت صورة لها التقطتها روح الظلام التي كانت تتجوّل في الغرفة، الظلام يخفي العيوب.. ما عادت جليّة آثار سير عجلات عربات الزمن على وجهها، تذكّرت بذاك الوجه المختبئ وجها آخر، وجها كان لها، وجها جميلا، لزمن جميل. حرّرت شعرها، فانبثق وكاد أن يطأ بأطرافه القرمزية أديم كتفيها، أخذت تسرّحه، ترشف خطوات المشط تتخلّله، تصدّق ثناء مرآة تعلمه كاذبا، وتطرب للوقت غفا.. تحت الظلّ.

الوقت لا ينام طويلا، سِنة لا سَنة..

تركت المشط وابتعدت عن المرآة، جاورت المستريح وأنفاسه في كبد، تحسّست خدّه بالظهر من يدها فجبينه بالبطن، ما كان محموما، لذلك انشرحت تنظر إليه نائما، مشفقة على كلّ شهيق جديد من ذاك الزكام العنيد، مسحت على رأسه مرّة، كي تعلق على وجهه الحبيب القريب، إنّ هذا رفيق نصف دربها.

عندما بلغت الخامسة والثلاثين، كادت تتأكّد أنها ستمضي الباقي من العمر كما أمضت الفائت.. وحدها.

والمُتوقَّع لم يزعجها ولا أسفت له أو ساورها ندم حيال قرارات أدّت إليه، كانت مشغولة، دائمة الانشغال بأفكارها، منبهرة مكتفية بعالمها، سعيدة بحريّتها، هانئة بالنافذة العالية التي كانت تطلّ منها على سوق الارتباطات وما يتصاعد منها من دخان كالزوابع لشديد ما يصدر عنها من جلبة وفوضى، ولصرف المشاهدة أحيانا متعة فاتت من هم في رجّة الموقف. فلمّا تبقّى

على تمام بناء جدار الأربعين غير لبنة واحدة، تأكّدت من الذي كانت بالأمس على وشك أن تتأكّد منه، وما اغتمّت للأمر إلّا لو كانت اغتمّت له أوّل مرّة، فقد كانت أنفقت تلك السنوات القيّمات من شبابها على ما أحبّت ورأته قيّما صائبا، على تحصيلها العلمي وهواياتها الأدبيّة وميولاتها الفنيّة، فكان حسبها من ذاك الجود أنّها سمعت من قناعاتها وصمّت عن التقليد.

لكنّها الحياة.. أكثر عشوائية من أن تتطلّب امتحاناتها آلة حاسبة، أغرب من أن تستجيب للمنطق طوارئها، وأعجب من أن تصدق التكهّنات حول قادمها، تكفي الرغبة في شيء حتّى الموت حتّى يتبدّد، كما يكفي الزهد في شيء حتّى النوم، حتّى يتجسّد.

الحبّ قد يكون أدبا وأشعارا، ورومانسيّات روايات وأغاني وورودا وشيكولاتة، وأفلاما وأحلاما وأوهاما، لكنّه حتما.. مواقف وبراهين.

«الانتظار».. بوليجراف المشاعر.

لا يصمد في قاعة الانتظار إلّا العاشقون، الآخرون يتفرّقون وينتشرون، فلا وقت لديهم ولا صبر لديهم.. هذان عدّة العاشقين.

لا ينتظرك إلّا من تعمّقت فيه، ولا ينصرف عنك إلّا من طفوت على سطحه، ثمّ لا غصت ولا تعمّقت..

والحبّ والانتظار يتعاضدان على الولهان حتّى يريانه من الخيالات والسرابات، ما تتلاشى به الأزمنة وتمّحي به المسافات، كي يغدو أغلب الواقع

وهما، ووحدها صورة الحبيب حقّا. إنّه قريب مهما ابتعد، مغفور له مهما جار، سام مهما سفل، مبرّأٌ من كلّ عيب.. مهما نقص.

بشجب حالات الهزل والطمع والمصلحة، من يتّخذ له زوجة هي الأولى والأخيرة امرأة أربعينيّة، إلّا من رجلين اثنين: واحد ذي نظرة عميقة وفكر حرّ جريء، أو آخر أحبّها بقلبه لا بحاجاته.. والحبّ سيّد التّنازل.

عادت إلى الوطن إذن، يسوقانها الشوق عن اليمين وعن اليسار الحنين، قرّرت أنّها ستكون زيارة طويلة، تعود فيها الأهل والأحبّة، وتمكث أسابيعَ، بل تشهد أهلّة.

ما كانت رأته منذ سنوات عديدة، ولا حافظت إبّانها على حياة التواصل بينهما، ما تركت له شيئا إلّا ذكرى صورتها، آمرة إيّاه بذلك أن يجعل لها قبرا منسيّا في ذاكرته.. ويقبرها فيه.

لكن كيف.. وكان سلك بها الحبّ سبلا وفجاجا، وانحدر وانعطف ومال وطار وحطّ؟

كيف تجاهلت ما بات في رصيدها المعرفي حقيقة علميّة كدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، أنّ ذكرى الصورة كافية لحياة الحبّ؟

يقول مثل يوناني قديم: «العشّاق يعيشون على الماء البارد والقبلة».

لعلّ ذاك حال العشّاق المترفين، الأقلّ ترفا يعيشون على الماء البارد والصورة.

أمّا الحبّ فيعيش على الأمل، والأمل يعيش على الرجاء، والرجاء يعيش على الأحلام، والأحلام تعيش على الأوهام.. فالحبّ إذن يستمدّ طاقته التي يبقى بها على قيد الحياة من الأوهام، ويؤمن بها لأنّه لا يناديها باسمها أنْ يا أوهام، إنّما يكنّيها بأسماء دلع لا تنطفئ بها نشوته. بهذه الطريقة تُمنح أسباب وتُختلق أعذار وتُلفّق أكاذيب وتؤلّف قصص، وتصطبغ السماء بالوردي بدل الأزرق وسحابها بالأصفر بدل الرمادي، وتُصفّد أجنحة الطيور قاطبة، وها هو المغروم أو الموهوم يضرب بجناحين من جنون ويضطرب على فراغ سمائه الوردية على صفار، حتى تلوح له حدود الرقيع.

هكذا تقريبا يعيش الحب ولا يختنق داخل صندوق القلب المتروك..

كلّ تلك السنوات لم تحقّق شيئا.. كان مرتبكا داخل مركبته، تنتظر زهرته المستلقية على الكرسي بجانبه أن يحسم أمره وأمرها، فإمّا يبقيان في الداخل ويصمتان بعد ذلك إلى الأبد، أو يخرج وبها يقول ما لديه، لمن تكبّدا عناء الطريق حتّى المطار، لا لشيء غير بنيّ عيونها.

شعر بتوتّر الامتحانات المصيرية، بخوف من ردّة فعلها.. ماذا ستقول؟ ماذا سيقول؟ تدرّب كثيرا على ما هيّأه من كلمات منتقيات وحركات راقيات لبقات، ثمّ وقد صار في قلب الحدث، كلّ تلك الباقة المنتخبة بين كلمة وحركة أمست تبدو مثيرة للسخرية، ببعض الحظ يسعفه أقصى ما يمكنها تحصيله من تجاوب.. هو الشفقة.

أدار مفتاح المحرّك بنيّة الفرار بماء الوجه، الوفاء لمن خانك ولو مع الخواء ضعف، كما البقاء على عهد من استبدلك ولو بالهواء ذلّ، احتقر نفسه وكاد أن

يهينها: «ألا تسمعين بشيء يدعى الكرامة أنتِ؟»، حينها ردّت عليه بأن خرجت به إلى صورة لمحتها وشبّهتها.. نفس الطول، نفس البنية الجسديّة، نفس المشية، غير أنّ هذه أكثر تعقيدا، امرأة في أناقة سوداء، كأنّها عنوان للرقي بمعطف أنيق، آخر طوله آخر الركبتين، وأوّله يغطّي الرأس بريش يحيط الوجه، بنطلون واسع، حذاء لامع، تحمل على كتفها اليسرى حقيبة كبيرة طويلة الحاملين نسبيّا، مصنوعة من الجلد ومبرقشة بألوان خافتة، وتجرّ باليد اليمنى حقيبة أكبر، كانت تمشي وتبحث بعينيها كأنّها تترقّب مترقّبا، ثمّ فجأة.. توقّفت.

كانت خطواتها السريعة قلّصت المسافة الفاصلة، أرسلت قبّعة معطفها إلى الوراء بيدها اليسرى يلفّها قفّاز أسود، فتجلّى وجهها أوحد ما خصّته منها بالبياض يحدق به، كان مشرقا، منتعشا بالهواء البارد، تغيّرت بما مرادفه تطوّرت.. امرأة ناضجة، جمال ناضج.

حان وقت قطاف زهرة أفخم، أيّتها الزهرة المستلقية!

قطف زهرته من على كرسيّها وسار عازما، لا متردّدا ولا وجلا، فلتقل ما تشاء! ولتحكم على زهرته كما تريد! ظلما وجورا، أو عدلا وإنصافا! أحبّها بصدق، فإن ترى في هذا ما لن يسرّ خاطره أن تصارحه به، فهي حرّة! ولتعجب لحاله ولترثيه، أو لا تعجب ولا تشفق! ما عاد يهمّه أن تتلقّاه كما حلمت أمانيه مطوّلا، إنّه مقبل إقبالا لا يحتمل إدبارا، ليقرئها سلاما يعدّه مدينا به لعودتها، ويلقي عليها عبء ارتقابها الذي حمّلته إياه مكرها مذ فرّت، سيعود خفيفا منه، وتعود به جاثما على حقيبتها جثومه الأوّل على صدره، تجرّه مع أثقال متاعها!

تجمّدت رقرقة الحياة على ملامح وجهها وتوطّدت في مكانها أشدّ يبوسة من تمثال صخري، تعرّفت عليه دون جهد استذكار، ما كان مختلفا عمّا كان، من سوى شابّات رأسه.. اندسّت بينهنّ حزمة متطفّلات باهتات.

استقرّ أمامها وقاطع ضوء عينيها بضوء عينيه، فخار وذاب جمودها:

-ألا ترجعين عن بعض كلّ هذا الرونق، فأعزّي نفسي في فواتك ويهون عليها فقدك؟ ألا يمضي بك الزمن أنتِ؟ أم أنّك غير النساء والناس؟ متمرّدة حتّى عليه؟ فلا تنحني شارتك ولا تتواضع نضارتك؟

قال ويمدّ الزهرة لها.

قبلتها، قرّبتها من تنشّقها، ابتسمت للحبّ واستسلمت لمراسه:

- ألا ترجع عن بعض كلّ هذا القلب، فترحمني نفسي ولا تقيم عليّ كل أنواع الحدود؟ ألا يمضي بك الزمن أنت؟ أم أنّك غير الرجال والناس؟ جلد حتى عليه؟ فلا مللت ولا تكلّ؟

تهلّل أن تلقّته كما حلمت أمانيه:

- بالمناسبة.. إنّها زهرة الآستر، ها؟

لم تتعجّب.. أدعى إلى العجب من زهرته أنّى جاء بها، صموده وشموخه، ولو أن هذه روح الجبل لا تخفى على أحد.

- لعلّها الريح حملت بذرتها وجابت بها من أرجاء العالم، ثمّ لم تجد لها ربعا من الربوع تأمنه على انفلاقها، خيرا من الأوراس المهيب..

ووقّع الاحتضار على صحيفة الانتظار.

أطفأت آستر نور قنديلها وبقيت جالسة في ظلام لا يكاد يجدي معه نفعا نور البصر، لولا معروف إنارة الطرقات، قيام ليلها إطعام النوافذ الجائعة.

الّليل مريح للأعصاب..

بوقاره وطول صمته، بسمائه السوداء ونجومها الماسيّة.. ولو صادف أن أنار غرفة الكون بمصباحه الذي يملأ السقف ويغدق الأرض، فتلك ليلة فيها موعد. موعد للمتأمّلين والمتألّمين، للشعراء والعشّاق، للفنّانين والحالمين، للفارّين من أيّام الحياة الخالية من الجمال والهناءة.. ليلة مثلها، منتظرة المفكّرين ومرتقبة المتفكّرين.

يبقى أنّ شهود موعد كهذا قد يتسبّب في غياب مواعيد أخرى، أقلّ رومانسيّة وأكثر جدوى.

الحياة تهوى المقلوب.. الآن تهواه لأنّه يغيظ البشر أم لأنّه طبيعتها، وحده اللّه يعلم.

عادة لا تسهر كل هذا القدر، أمّا الّليلة وتنتظرها ندوة الغد التي ما كانت فرغت من التحضير لها عندما اتصلت جوري الصغيرة أبلغتها أنّ جوري الكبيرة تحسّنت، فها هي تعدّ النجوم مستسلمة لسحر الليل مسلّمة أفكارها له يلهو بها، على كلٍّ.. ستتدبّر أمرها، «الحبّ الأفلاطوني» هذا ليس ما تجهل، بعد أن كان يوما موضوع رسالة الدكتوراه خاصّتها، لذلك لا داعي للقلق، سترتجل.

«جوري الصغيرة» و«أُحُد الصغير».. حتّى زواجهما لم يعد عليهما بترقية من ذينك منصبي الصغيرين. جوري الصغيرة، أو «زينة».. بنيّتها التي لم تنجبها.

بعد مرور سنتين على زواجها من أوراس دون إنجاب، اتّخذت وإيّاه قرارا استلهماه من صنيع جوري..

***

فقط ٧ ملايين طفل تتمّ رعايتهم من بين ١٥٣ مليون يتيم حول العالم.

أكثر من ١٥٪ من الأيتام ينتحرون قبل سنّ الرّشد.

٦٠٪ من الفتيات اليتيمات يتّجهن للبغاء وأكثر من ٧٠٪ من الفتيان يصبحون مجرمين.

١.٢ مليون يتيم يتمّ اختطافهم كلّ سنة.

- عن مبادرة «رفقاء» القطرية الخيرية للأيتام-

بغضّ النظر عن أنّهم إثم مَن؟ مِن البشر، أو جرم مَن؟ مِن الخطوب..

مسؤوليّة من؟ هؤلاء الأطفال.

مسؤوليّة مجتمع تكاثريّ بامتياز؟ فيه كلّ فرد لا يقنع بأقلّ من ثلاث أو أربع نسخ عنه؟ فلا مكان بعدها لمن يسمّيه «غير ولدك»، على أنّه «يا مربي في غير ولدك يا باني في غير ملكك».

المنطق المادّي السخيف.. لأنّ الإنسان والجدار شيء واحد.

ما الذي حصل حتّى انقلبت الموازين كل هذا الانقلاب؟

الأمّة الإسلامية الموعودة بالجنّة مقابل طفل واحد مكفول تتّخذ هذه الفضيلة مهجورة، عندما تتبنّاها الدول الغربية ويتهافت عليها مشاهيرهم قبل مواطنيهم حسبهم منها أنّها عمل إنسانيّ.

الخطأ عندنا في المفاهيم..

سموّ الأمومة يتخطّى استدارة البطن واتساع عنق الرحم، كما هناك فرق بين صرف علاقة جنسيّة أثمرت ورفعة الأبوّة، لأنّ الأمومة والأبوّة في الحقيقة تنشئة قبل أن تكون محض إنشاء.

الجميع مستغرقون في استدعاء أطفال جدد، فيمنحهم الإطلال على مهودهم نشوة انعكاس صورهم، دونما أدنى مبالاة بأطفال بلا سند تعجّ بأسرّتهم وتضجّ ببكائهم الملاجئ. لماذا لا يمكننا أن نحبّ ببساطة.. دون أن ننتظر على الدوام شيئا بالمقابل؟

لماذا لا يمكننا أن نحبّ طفلا إلّا لو كان يحمل لقبنا وجيناتنا وصورتنا وزمرتنا الدموية أيضا ربما؟

ثمّ بهذا المنطق، فالإنسان يحبّ نفسه لا أبناءه، لأنّ الحبّ الحقيقي حبّ غير مشروط ولا ببنود منوط. والغريب أنّهم يتشبّثون بشكليّات قد تفلتهم.. أليس الرجل يحبّ ابنه وما حمله ولا وضعه؟ وهنا الخطاب موجّه للمرأة، والمرأة تحبّ ابنها حتّى وهو ليس فيه منها شيء من شبه أو غيره؟ والخطاب هنا

نخصّ به الرّجل.. هل كلّ ما يسعى إليه الرجل من خلف الخلفة إذن أن يطمئنّ بأنّ هذا الذي ينمو من خيره يحمل جيناته؟ وكلّ ما تبغي المرأة منها أن تتأكّد بأنّ هذا الذي ينمو، ينمو داخلها وسيخرج منها؟.. لماذا كلّ هذا التشبّث بالمادّة؟ كلّ هذا التقديس لِ «حمأ مسنون»؟ فهذه المادّة للتّذكير لا تلبث تحت الأرض زمنا يستحق تقديسها وتضمحلّ، كي لا تبقى من الجينات والصور والزمر الدموية غير الأرواح، فلماذا لا ينزل الأيتام على الأسر كأبناء للأرواح؟ وعندها قد يُفضّلون على أبناء الجسد، بما أنّ الرّوح من السماء وإليها فيما الجسد يبتدئ نجاسة وينتهي دودا.. لقد آن للعقول أن تنفض الغبار عن زرابيها.

من حقّ كلّ إنسان أن يتكاثر لو قادر وراغب، ولكنّه بات واجبا على كلّ إنسان أن يفكّر ببعض المسؤولية وكلّ الجدية عندما يتعلّق الأمر بمزيد من التكاثر.

لن تنجم أضرارعن شجب مشروع إنجاب ثالث مثلا، بل لعلّ تحديد النّسل في المجتمعات السائرة في طريق النّمو أمر محمود أو صار لا بدّ منه، إذ لا يمكنها احتواء أزماتها والحدّ منها وهي تتكاثر بلا ضبط ولا وعي، في هذه الحالة رقّع من هنا يتمزّق من هنا وهناك! لمّا كفى به إنجازا إنقاذ طفل وحيد ومحروم. ثمّ الأطفال بلا مأوى ثروة مهدورة، والمنطق يملي أن لو مائدة مترعة رزقا طيّبا بين اليدين، فالأوْلى إكرام النعمة واستعمالها بدل نبذها خلف الظهر أو كبّها في الزبالة واستقدام مائدة أخرى. لا تسعد بنفسك يوم تشتري جديدا برّاقا، إنّما يوم تصلح مهملا أقدم، وتلمّعه.. رأس العطاء ليس أن تكرم امتداد نفسك في أجساد صغيرة أخرى، إنّما أن تلتقط طفلا من جانب قمامة، من تحت جسر أو سوط، وتمنحه بيتا وحبّا وعطفا وعائلة،

عندها كلّ لقمة، كلّ بسمة، كلّ مسحة، ستصبّ في صندوق احتياط وتوفير خاصّ بك ومن نوع خاصّ.. نِعم الاستثمار ذاك الذي يعدّ ما أعطيت، لا ما لم تعط.

يقولون إن الإنجاب هو منح الحياة -بمرّها قبل حلوها- وقياسا على ذلك فإنّ كفالة يتيم هي منح حياة للحياة.

في الذكرى الثانية لوفاة أُحُد، شعرت جوري بأنّ نصيب زوجها المتوفّى من قلبها حبّ متوهّج ميؤوس من أن يخفت، حبّا يفجّر قلبها كلّ يوم مرّة على الأقلّ دون أن يودي بحياتها ويخلّصها، فاهتدت إلى أنّ الخلاص قد تجده في سبل الخير لو تسيرها وأبوابه لو تطرقها والأشقياء والبائسين لو تبذل لهم ولا تدّخر.

لم تكن عاملة، ليس اختيارا للبطالة إنّما حصارا منها، والفراغ وقبعة البيت لا يسلّيان الإنسان عن همومه، بل يقدّمانه لغولها في ماعون يفتح الشهيّة عليه.

الفراغ داء أقرب إسقاط له على معلم الأدواء الجسديّة مرض نقص المناعة المكتسبة، فهذا الأخير يصنع من الجسد المصاب به أسهل طريدة للفيروسات الأخرى. ثمّ كما أنّ للأرض محورا وهميّا تدور حوله، بالمثل حياة الإنسان بحاجة إلى محور حقيقي تحوم حوله، لأنّ العيش دون اهتمامات يلقي بالإنسان على هامش الحياة، كما يتطهّر البحر من خفائف الأغراض على سواحله.

فإذا كنّا غير قادرين على أن نشغل أنفسنا بما يعود علينا بمنفعة حسيّة، فلمَ لا نشغلها بما يعود علينا بمنفعة وجدانيّة وعلى الآخرين بمنفعة حسيّة؟

انخرطت جوري في جمعيّة لحماية الطفولة والشيخوخة، أين استطاعت أخيرا أن تصرف الفائض من طاقة الشباب والحب التي كانت داخلها كتسونامي جائر لا يلبث يطغى على نفسيّتها ومزاجها، نحو سدود وآبار جافّة، والفيزياء تقرّ بأنّ جسما يعاني فرطا في الشحنات بحاجة إلى جسم يشكو نقصا كي يستقرّ المزيد والمنقوص.

في يوم ذي باكورة عادية لا توحي بأنّ مستجدّا في طريقه إلى حياتها بعجلات مستعجلات ليحدث فرقا على المديين القريب والبعيد، مضت جوري إلى أعمالها التطوّعيّة بقلب منشرح انشراحا لا يعرفه سوى أصحاب الأيادي البيضاء بعد أنّهم زرعوا بسمة، أو اقتلعوا شوكة. ولعلّها شعرت بإضافيّ من الانشراح طفح صدرها، إحساس غريب كحدس قوي أنّها اليوم ستلقى ما يسرّها، وتعود ظافرة.

إسهامها في الجمعيّة كان يتمثّل في أنّها كانت تعطي دروسا للدعم لتلاميذ ينتسبون إلى فئة الطفولة المسعفة، مضافا إليهم عددا من التلاميذ المنحدرين عن عائلات فقيرة، وكان ما تقدّمه في حصّتها أقرب إلى المراجعات العامّة ودروس تحسين المستوى العام من كونه دروسا خاصّة بمادّة أو مقيّدة بمنهاج، وذلك مراعاة لتفاوت أعمار التلاميذ وبالتالي اختلاف مستوياتهم. كانت تركّز على القراءة والكتابة، تحرص على ألّا يتعثّر قارئ في قراءته، ولا يزلّ كاتب في إملائها، كما كانت تخصّص بعض الوقت لأبجديّات الحساب كالأرقام والعمليّات الحسابية الأربع ومسائل بسيطة كانت تعدّها ضروريّة لتنمية فطنة الطفل وتهيئته لعالم المعاملات الحسابية بأنواعها من بيع وشراء وغيرهما، فالرياضيات لا غنى عنها في الحياة، ثمّ في الأخير لو

يسمح الوقت، يقرؤون جميعا دعاء تهديه إلى روح زوجها وكلّها بشر بالاستجابة، ما داموا ملائكة أولئك الذين كانوا يؤمّنون.

لمّا صارت هناك وسارت إلى القسم، تصادفت مع زميلة لها مهمّتها قراءة القصص والحكايات لأطفال الروضة، وهي تأخذ بيد طفل صغير لا يخمّن مخمّن بشأن سنّه أنّه قد يتجاوز الأربع سنوات، وتمشي به في اتجاه ينتهي بمتّبعه عند مكتب الإدارة، لا غير.

توقّفت لها جوري حيّتها بعد أن أثار فضولَها أمرُ السائقة والمسوق وذلك الاتّجاه، فسألتها إن كان هناك خطب ما وإلى أين، هناك أطلعتها تلك أنّها شبه متأكّدة أنّ الطفل يعاني من اضطراب ما خلف حركيّته الزائدة عن الحدّ على حدّ قولها، لذا الأحسن له والآمن للأطفال الآخرين والأريح لها أن تنظر الإدارة في أمره، وستنصح بنقله إلى جهة أكثر اختصاصا لها أن تتعامل مع مثل هذه الحالات.

وبينما حُلّت عقدة من لسان زميلتها واسترسلت في الحديث عن خبرتها بالأطفال التي أكسبتها إحاطة بخبايا أنفسهم الصغيرة من خلال سلوكاتهم عدائيّة كانت أم مسالمة، كانت جوري تتأمّل الطفل، هي ما كانت لديها مثل تلك الخبرة، لكنّها كانت تمتلك إحساسا قويّا ونظرة جارحة تخترق ظاهر الأمور، فما رأت في وقوفه المذعن بيده داخل يد الأخرى وعبثه بقدمه في حركات طفوليّة بحتة ما ينمّ عن طفل له احتياجات خاصّة، ولو أنّه كان عاجزا عن التعبير عمّا يختلج في نفسه، فنظراته الحزينة كانت صفحة ماء صافية تعكس دوّامات عنيفة تتخبّط فيها روحه الصغيرة الضعيفة، حدّ التيه.

لم يكن طفلا مضطربا، لقد كان طفلا حزينا ببساطة.

ترجّتها جوري أن تفوّض أمره إليها كأوّل إجراء قبل إقحام الإدارة وتعظيم أمر لعلّه أبسط من ذلك، ناشدتها أن تسمح لها به ينزل ضيفا على حصّتها وبعدها تنظران، وزادتها لإقناعها وصرفها عمّا مقدمة على فعله، أنّها بحاجة إلى رأي من جنس رأيها صادر عن شخص غيرها تعزّز به النتيجة التي توصّلت إليها وتحوز به على معتبر من المصداقيّة. فأقنعت حجّة جوري وتنازلت المربّية، وانتقلت يد «أيّوب» إلى يدها، وصار يسير رفقتها في الاتّجاه المعاكس للذي كان يسير فيه قبل يسير.

وهكذا القدر، همسه زوبعة تقلب الحياة رأسا على عقب.

أعطته ورقة مزّقتها من كرّاستها التي تسجّل عليها ملاحظات متابعتها للأطفال، مع كلّ أقلامها الملوّنة استلّتها له من أغطيتها الواحد تلو الآخر، ثمّ بطريقة تغري فضول الأطفال سألته أنّه لو رسم رسمة جميلة فله بها هديّة، وكانت تلك زلفى الهديّة وُصلتها في التعامل مع الأطفال، خاصّة لتقويم سلوك من هم أصعب مراسا بدل سياسة الضرب والتخويف والإهانة والإقصاء، هذه ما كانت تعتقد بأنّها قد تجدي نفعا كأن تصلح أو ترقّع، بالعكس لطالما عدّتها كزيادة الطين بلّة، وقد تُفقد إلى الأبد ما كان من الممكن جدّا كسبه إلى الأبد.

ألم تكن الشمس آخر من ضحك بعد رهانها مع الريح على معطف رابض على ظهر رجل، من منهما تنزله؟ فكانت الكلمة الأخيرة لرفق الدفء دون عنف الهبيب.

العنف ليس آخر الحلول، العنف ليس حلّا أبدا.

بعد انتهاء الحصّة خرجت جوري من القسم بالطفل وبنتيجة مضادّة لنتيجة المدّعية، أنّه لو يعاني ويرهق فلأنّه دخيل على ذاك قسم الروضة، ومشكلته أميل إلى كونها نبوغا من كونها اضطرابا، ما حاولت بشتّى الأساليب أن تشرحه لزميلتها، من سوى أنّ تلك اعتذرت أنّها ما عادت قادرة على مجاراة جموحه، وأنّه وحده يتطلّب منها مثلما يتطلّب كلّ البقيّة من مجهود حرص وحراسة، الأمر الذي كاد يتسبّب لها في ورطة يوم انشغلت به فسهت عن طفل آخر ولم تنتبه له وهو يخرج من الغرفة لولا أن عاد به متطوّع مثلهما وحذّرها من عواقب السهو عليها وعلى الجمعية، لذلك تقدّر أيّوبا مسؤوليّة أثقل من طاقتها، وإنّما هي تطلب تحويله حرصا عليه ولمصلحته، وإلّا فماذا تجني هي من كلّ هذا؟ إنْ أجرها إلّا على اللّٰه.

أطرقت جوري ثمّ طأطأت رأسها أسفا أنّه غير مسموح لها بنقله نهائيّا إلى قسمها ولا نجحت في إبقائه على مقربة، وأكثر من الأسف قلقا على مصير الصغير، هي من أعلم الناس بهذه الحياة إلى أيّة درجة قد لا ترحم، هي من أعلم الناس بحدود لؤمها.. أنّه لا حدود له.

كيف تبلي ذرّته على سهل عالم لا يقلّ تعقيده ضراوة عن قسوة الحياة؟ بدءا بوالدين يحمّلان رضيعهما جرمهما ويفرّان، تاركين له عارهما ولا لقب.. إلّا لقب لقيط.

غير ملومة مربّية غريبة لو ضاقت به ذرعا عندما أوّل من طرده بعيدا عن حضنه.. أمّه، ثمّ أبوه.

لكنّ الحياة بخير ما دامت لن تُعدم القلوب الرحيمة..

حوّلوه أم أبقوه، في الحالتين لن تكون الحياة التي يستحقّها طفل طاهر جُرّ إلى هذا العالم العفن جرّا!

ولحظة ذروة جنون أم لحظة قمّة عقل لم تدر كثيرا، غير أنّها في اللّحظة التالية مباشرة كانت تحمله وتسأل عن إجراءات الكفل.

ولأنّها معروفة الجميع هناك وأمينتهم، ما سُئلت عن غير مصدر رزقها، فلمّا أعلمت بأنّها تعيش على دخل زوجها الرّاحل، يُحوّل إليها كلّ شهر من فرنسا، مُنِحته والإذن باصطحابه على الفور، في انتظار أن تجهز الوثائق القانونيّة التي تضمن حقوقها كوصيّة شرعيّة عليه.

عادت به إلى بيتهم نائما، يتوسّد رأسه كتفها، فأهلها تعجّبوا لكنّهم لاحقا بعد أن زال عنهم الشده رحّبوا، وأخذته إلى غرفتها، ووضعته على سريرها، وجلست إلى جانبه تتأمّله، سعيدة بدخوله المفاجئ حياتها، قريرة العين أن ظفرت به كما استبشرت.

ومنذ تلك اللّيلة لم يعد هناك من أيّوب، ولكن.. «أُحُد».

وكما للشر نحسه فإنّ للخير بركته، وهكذا بمجرّد ما ضمّت جوري أُحُدا الصغير تحت جناحها، كأنّه فتحٌ من اللّه نزل بساحتها، فجاءها ذات مساء شهاب –وكان موظّفا في مديريّة الثقافة- بمنصب عمل قال إنّه مستحدث وبدوام جزئي، الأمر الذي وقع على مشيئتها كشربة عسل على حلق متقرّح، فالوظائف ذات الدوام الكامل تمتصّ الأيام كما تتشرّب الإسفنجة الماء، ولا

تُبقي للإنسان من وقته إلّا ما يُزدرى، هي التي أضحت مسؤولة عن طفل صغير فبأمسّ الحاجة إلى الوقت، ولو أنّه من الأساس، هل للإنسان من رأس مال أثمن من وقته؟ أو بتعبير أدقّ.. هل الإنسان إلّا وقته؟

فأصبحت إذن تعمل في الفترة الصباحيّة من الساعة التاسعة وحتّى الواحدة، كمرشدة سياحيّة لمنطقة أثريّة، وزاد شغفها بعملها الجديد يوم اكتشفت أنّ كلّ الآثار التي هي معنيّة بتعريفها والسرد عنها ما هي إلّا آثار رومانيّة، هي الحاصلة على ماجستير تخصص فلسفة رومانية، أيّ عمل من شأنه ملاءمتها أكثر؟ فشعرت تلك السمكة بأنّها ألقيت في البحر من جديد، بعد سنوات الحوض.

ومن ثَمّ..

جسد الزمن كأجساد البشر وحده الخمول يُثقله، بينما يفقد من وزنه بسهولة فيخفّ.. لمّا يهرول به صاحبه.

***

نام الأوّل فأستيقظ أوراس هو الأوّل، توضّأ للصلاة، ثمّ أيقظ آستر فقامت متعبة، هي التي وقع اختيار شهريار الأرق على خواطرها في تلك الليلة الفارطة، أن يكنّ شهرزاداته.

لا أجمل من بداية اليوم إلّا نهايته.. يظهر كأنّ الدنيا تتجدّد مع مطلع كلّ يوم جديد، تماما كما تنبعث الأجساد من مراقدها، وقد نسيت عناء اليوم المنصرم.

كانت لديها ندوتها وهو كالعادة لديه أرضه، تلك الوحيدة التي كانت تشعر بأنّها تنازعها مكانتها على قلبه.. هل يمكن أن يتعلّق رجل إلى هذه الدرجة بقطعة أرض كما لو كانت قطعة من حسن في قالب امرأة؟

عندما يكون رجلا بمعنى إنسانا فإنّ التعدّدية الفكرية تورّث تعددية عاطفية.

في الحقيقة لم تأذن الأقدار الماضيات بظعن آستر صوب أراضي المملكة العربيّة السعوديّة، فخابت خيبة من جنس خيبة نيل، هي التي ظلّت بعد العمرة تردّد أن كلّ مدن العالم مدينة إلّا المدينة المنورة. لحسن الحظّ لم تستسلم وسخّرت استعار الخيبات لاستواء الملَكات، ولأنّه «من الجرح يولد الأدب» كما تقول أحلام مستغانمي، فإنّ المثابرة لم تستغرق ما يقرب الانتظار وتكلّلت همّتها برحلة إلى أرض الكنانة ضمن بعثة ثقافية، بعد أن باضتها قصّة حبّها لنيل على سماء الإبداع الكلمي نجمة قطبيّة.. أو نجمة أدبيّة. وهي «بشرة خير» فعلا أن تشرق شمس الانطلاق من أمّ الدّنيا وبلد الأدباء، فحظيت بنجاح لم تحلم به أشدّ أحلامها إسكارا على تلك الأرض الخيّرة الطيّبة ووسط شعب لسانه من شهد وقلبه من إيمان، ولو أنّها انتوت أن تظلّ هناك طول العمر تسمع من خفرع تارة وتلوّح لمنقرع مرّة وتُكْبِر خوفو أخرى ثمّ تدنو من نيل يشطف بحنوّ جماله وهيبة امتداده إجحاف أوّل نيل، فإنّ الأقدار تدخّلت ثانية ونصبت أوراسا منعطفا مباغتا، كي يغيّر مشاريعها وينحرف له خط حياتها. ومن هناك تأثّثت عودتها بزواجها فعودتها إلى الدراسة فكفالة جوري الصغيرة. وكانت أشارت على جوري بأن تتقدّم معها لمسابقة الدكتوراه بملفّ ترشّح، خاصّة وأنّ أُحُدا الصغير ما عاد صغيرا،

غير أنّ تلك استسمحتها أنّ هذا المشروع بالنسبة لها مات في فرنسا مع بقيّة المشاريع الفرنسيّة، يوم مات أُحُد.

وضعت إبريق الشاي على النار، وجلست تنتظر أن تموج البحار داخله بلون أخضر زيتي وقد طفت الطحالب على سطحها المحتدم وتصاعدت عنه أبخرة عشبية عطرة.

لا أجمل من نهاية الشتاء إلّا نهاية الصيف، فلا أحلى من الربيع إلّا الخريف..

لأيّام الخريف نكهة خاصّة، مذاق لا قاعديّ ولا حامضيّ، حضور بعيد عن التطرف، سماء تصمّ أذناها بسحبها عن ثرثرة لهيب الشمس.. والشمس لا تحبّ الخريف، فهو دائما من يوقعها عن عرشها كي يجلس عليه ويأمر بخطّة بديلة، لا مزيد من الصحاري، المهمّة الجديدة للسماء هي.. الماء!

أن يتوقّف الحبّ عن إيلامنا لا يعني أنّنا تصالحنا معه.

بعد الكوارث الطبيعيّة يعمّ الهدوء، هدوء هو أكثر هدوءا من أي هدوء يعقب هدوء..

لكنّ الخراب ناطق صامت.. وشاهد حاضر.

إنّنا نتعوّد، لا ننسى..

ونتقبّل، لا نقبل..

وليس قبل كمال إعراض.. نزهد.

كما يقولون، الحبّ شيء والنصيب شيء آخر.. في نفس الوقت، لا تجفّ آبار الحبّ لحرارة النّصيب بالضّرورة، كما لا يضمن فأس النّصيب أن يفجّر عيون الحبّ.

إنّ هناك فرقا.. فرقا شاسعا بين ما نعتقد وما نشعر..

ليست كلّ معتقداتنا تحظى بمباركة مشاعرنا، ولا كلّ مشاعرنا تنعم برضا قناعاتنا..

بحسب الظروف تكون الغلبة لإحدى الطائفتين منّا..

السلام حلم بعيد المنال عن مضامينا.

تعرّج امرأة على متجر للأحذية، تريد أن تبتاع لها واحدا.

هناك أشكال كثيرة، كثيرة جدّا.. وألوان أكثر.

والعين فطريّا تثب على الأشكال المعقّدة والألوان الصاخبة، تفضّلها وتشتهيها..

بين غنج حذاء مدبّب ذي كعب عال وفتور حذاء رياضي، الاختيار السطحي لا يكاد يتطلّب شيئا من تفكير.

ولكن..

بين متعة لحظيّة وراحة دائمة، الاختيار المتوغّل.. لا يتطلّب شيئا من تفكير.

تبتاع لأنّها تفكّر الحذاء الرياضي.. إلّا أنّ اشتهاء الحذاء الفاتن، يبقى في القلب.

أوراس فكرها، نيل كان قلبها.

وهي تعتبر نفسها محظوظة حظ الناجين من سفينة التايتانك أنّها تحقّق فكرها، رغما عنها وعن قلبها..

الحب رائع فقط لو وافق منطقنا، وعدا ذلك فإنّه يجتاحنا بنيّة الإبادة، والقوّة أن تتغلّب بمنطق فكرك على عبثيّة شعورك، بعد ذلك أن يتجاوز قلبك أو لا يتجاوز، أمر لن يشغل تفكيرك لا كثيرا ولا طويلا.. ما دمت تجاوزت أنت، فموكب الحياة استأنف المسير.

أتى أوراس لأجل أن يفطرا سويّة كالعادة قبل أن ينتشرا كلّ منهما إلى مشاغله، سكبت لهما كوبين من الشاي وأغرقت في كلّ كوب حجرين من السكر تركتهما ينصهران، انصهار أوراس في حركاتها.

لقد عاش معها حياة تربت لها يداه، ما راوده شبح شكّ خلال سنواتها لثانية، أنّها انتهت من تلك القبلة القديمة وولّت وجه قلبها شطر وجه قلبه، فحلال زلال كل دينار انتظار وكل درهم شوق أنفقها في سبيلها يوما.

مسافات فلكيّة تلك التي بين المظاهر وحقائق الأمور.

الحياة ضيّقة، والناس بضيق أفكارهم وانحصار عقولهم يزيدونها ضيقا إلى ضيقها وانحصارا على انحصارها.. من قال بأنّ للزواج تاريخا يستحسن استهلاكه قبله؟

لأن تتزوّج في السّبعين من زوج في الثّمانين، تعيشان يوم مودّة واحد ثمّ تموتان سوية خير من زيجة عمرها نصف قرن.. من الهمّ والغمّ.

من قال بأنّ الغرض الوحيد والأوحد من وراء هذا الميثاق الغليظ والرابطة الأكثر قدسية على الإطلاق هو التناسل لا غير؟ ماذا عن الاستقرار النفسي؟

الزواج السعيد هو الذي يجعلك تشفق على أيّام العزوبيّة، لا تحنّ إليها.. تشعر بالازدهار، لا بالتقهقر.. بأنّك في أحسن حالاتك، لا كان من الممكن أن تكون أفضل.

كُل طيّبا وإلّا املأ معدتك ماء واضطجع.

غادر أوراس قبلها متّجها نحو روضته التي صيّرها بتفانيه وإحسانه غنّاء، وقد انضمّ إليه صهره أُحُد منذ سنوات الآن، من قبل أن يصير صهره حتّى.

واستقلّت آستر الحافلة للنزول إلى المدينة، فالندوة مقرّها الجامعة، ولقد كان في وسعها أن تستعير سيّارة زوجها كون سيّارتها تربض عند الميكانيكي منذ أيّام، غير أنّها وجدتها فرصة مناسبة كي تعاودها الذكريات المليحات أيّام الحافلات، حين كانت تركبها لنفس الوجهة لكن بصفتها طالبة، لا أستاذة محاضرة.

***

الحياة قصيرة.. لكنها طويلة أيضا.

أقصر من أن تحتمل مشاريع جادّة، أطول من ألا تثقل على متنها الروتينيّات..

إنّها لا تبدو طويلة إلّا في مواجهة الروتينيّات، كما لا تبدو جميلة إلّا نادرا..

لكلّ بداية نهاية..

لكلّ قصّة، لكل غصّة..

لكلّ أمنية، لكلّ أغنية

لكلّ يوم.. لكلّ عمر.

كانت جوري جالسة على كرسيّها، يروح ويجيء بها في مواجهة المطر يشطف بإصرار وجه الأرض وتتندّى له روح الجوّ.

غريب أن تنظر فجأة إلى هذه الدنيا التي استيقظت عليها ولا تعرف غيرها ومكثت فيها من عمرك، كلّ عمرك..

ونمَوْت ونمّيت وحلمت وشيّدت ورجوت وخشيت وعاهدت ووفيت وأقسمت ونكثت وصدقت وكذبت وتبت وعدت وعدت تبت...

وناضلت واستسلمت وجسرت وجبنت وقعدت وقمت وأكلت وجعت وأحببت وأبغضت وعفوت وانتقمت وانتظرت ونلت وما نلت و...

غريب أن تنظر إليها نظر من فرغ من أشغاله فجأة عليها.

غريب أن تنظر إليك بنظرة من أحالك إلى التقاعد واستغنى عن كلّ خدماتك.

غريب أن تشعر أنّ الأيّام تلك التي كنت تبسط يدك كلّ البسط في إنفاقها.. أنّها فجأة صارت ثمينة.

غريب أن تشعر أنّ شمس الأصيل تطير بك!.. نحو المغيب.

غريب.. أن يلوح الشفق الأحمر.

أجندتها لا تفارقها، وقلمها لا يفارق أجندتها..

المذكّرات هي كلّ ما ننجو به دليلا على أنّنا كنّا فعلا، وكانت تلك الأيّام وكانت تلك الأحداث، وأنّه كلّ ذاك، لا.. لم يكن حلما، ولا كان سرابا.

حياتنا لن تحظى بمؤرّخين أبرع منّا.

أفكار وذكريات عصفت ببالها واهتاجت لها عواطفها، فأثارت والمطر فيها حالة كزوبعة نفسيّة تتطاير لها الأشجان كما كانت لتلك عاصفة الخريف تتطاير الأوراق من الأشجار..

الحياة كالرواية.

يوم تشرع فيها يبدو لك كأنّك لن تنتهي منها عمّا قريب..

ثمّ يوم توشك على أن تنتهي منها، يبدو لك كأنّك ما عبرتها يوما، ولا اتّصلت أخبارك بأخبار أبطالها، ولا خضت في مغامراتها، وأنّها المسافة بين أوّل يوم وآخر يوم.. لا تعظم عن يوم.

ما دام القدر لا يخطئ، فهل كان خطئي؟ أم كان خطؤك الذي أدّى إلى كلّ هذا الفراق؟

أم أنّ الفواجع لا تنجم بالضرورة عن أخطاء.. حبيبي؟

لعلّه كان حلما، مجرّد حلم أملاه يأس مذعور كما أكّد الجميع، ولكنّني عشت طوال السنوات الماضيات

أرعى حروق الصبر بدهن ذكراه، وفي قلبي صوت يهمس تحت الهمس بشعور أقوى من جلجلة الرّعد.. أنّه كان حقّا.

أمّا الخيال أثير القلب، فكم تخيّلتُ..

كنتُ أتخيّل بأنّنا سنمضي في شبابنا حتّى يسلّمنا لكهولتنا حتّى تسلّمنا لشيخوختنا، وكلّ ذاك نشهده سويّة..

كنتُ أتخيّل بأنّنا سنصوم معا أعواما عديدة ونخرج معا للعيد، فألقاك عند باب المسجد بانتظاري بقميص ناصع وتهنئة حلوة كطعم أوّل قطعة من الكعك بعد شهر من الصّوم..

كنت أتخيّل بأنّنا سنقصد البحر كلّ صيف، بأنّك ستعلّمني السباحة، ثمّ تنصب لنا مظلّة كبيرة نجلس تحتها ريثما ننهي وجبة صغيرة..

كنت أتخيّل بأنّني سأسمع العواصف يهدّدن سكون الليل وأشعر بالأمان، فتحت خدّي وسادتك وفوق كلّي غطاؤك، ومسند إلى ظهري.. ظهرك.

كنت أتخيّل بأنّني سآكل من صحنك وتشرب من كأسي، بأنّنا سنراجع الفلسفة ونلعب الشّطرنج..

كنت أتخيّل بأنّنا سنتشاجر كثيرا ونتصالح أكثر، بأنّنا سنختلف أوّلا ونتّفق أخيرا، بأنّك ستجعلني أسوق السّيارة وأجعلك تقلي البطاطا، بأنّك ستتذكّر عيد زواجنا كلّ سنة وأرتّب ربطة عنقك كلّ صباح، بأنّنا بنفس الإناء من الفشار بيننا سنشاهد فيلما كلّ أسبوع، وبسبابتك سأعدّ النّجوم كلّ ليلة.. بأنّنا سنبني ميتما، كما حلمنا.

كنت أتخيّل بأنّك ستغفو على فخذي وتحت تهويدتي وأبكي على صدرك فوق حجم تكدّري، بأنّك ستكون صديقي الحميم قبل أن تكون زوجي، وبأنّك ستظلّ حبيبي فوق أنّك صرت قريبي..

كنت أتخيّل.. وما كان شيء من خيالي.

لقد كنتَ في حياتي بمثابة الحلم الوردي من الليلة السوداء، بمثابة لحظة ابتسام من يوم عابس، أو كرشّة عطر في قلب ذفر، لا أدري.. ربّما كان عليّ أن أدري بأنّ الأزواج لا يبقون سويّة إلّا لو انتوى الأوّل استنزاف جسد الثّانية، أو عزمت الثانية على إفساد عقل الأوّل، بأنّ هذا العالم خفّاش دميم لا يحتمل أن تسطع عليه أنوار الحبّ، لذلك يمتص دماء القلوب حتّى تجفّ في الصّدور، بأنّ السعادة لو وُلدت فلكي تنطفئ، بأنّها لا تعيش أطول من ذبابة مايو، بأنّ الدهر ماكر وخبير، ونحن ساذجون نبدأ ومبتدئون نبقى..

لا بأس حبيبي.. هذا العالم لا يستحقّ شيئا من دموع أو أسى.

هذا العالم الذي يرسل بالشمس وأسراب الطيور كلّ صباح ويسترجعها كلّ مساء، ولا كأنّه ينطوي على كلّ هذا الكمّ من المعاناة.. أحكام مؤبّدة بالسواد والسكوت، والصمت والسّكون، والفقر والجنون، وأسقام وشجون، وهذا جميل بلا تعب، وذاك قبيح بلا ذنب، وهذا سعيد وكلّه شرّ، وذاك شقي وجلّه خير، وهذا يعيش حتّى يموت، وذاك يموت قبل الحياة..

لقد فهمت هذا العالم مذ تفطّنت إلى فوائد الخلّ وأضرار السّكر.. نحن لسنا هنا كي نستمتع بالحلاوة، نحن هنا كي نتجرّع المرارة، فإن أطعنا الحلو وعصينا المرّ، فإنّ العاقبة لن تسرّ.

لذا ما عاد يمضّني بعد هذا الفهم شيء، ولا حتّى أنّنا افترقنا.. وبخصوص أنّي أمسيتُ على يقين، أنّه اللقاء.. دنا من أن يحين..

***

في البيت الآخر، انبعثت آستر من أريكة غفوتها شاحبة مبعثرة النفس، احتوت رأسها بيديها زمنا قبل أن تقوم صوب المطبخ، أين كان أوراس يطلي شريحة خبزه ببعض الجبن.

- حبيبتي ألم أكن نهيتك عن نومة العصر هذه؟

جلست دون أن تقول شيئا ولا يزال وجهها شاحبا وأمارات بعثرة النفس متفرّقة على محيّاها، فترك أوراس من يديه وهبّ إليها:

- هل أنتِ بخير؟

بدأت الكلمات تنزل والدموع تغسل:

- رأيتني ألج قاعة كبيرة قد نُصبت فيها الموائد، وما على موائدها من طعام يليق بالمحافل، وما كان فيها غير رجال سود الملاحف، فانقبضت لمنظرهم واستوحشت منهم وفورا التفتت إلى الباب أطلب الفرار، فإذا به اختفى.. فاضطربت وهلعت أكثر، وصرت أقلّب بصري بين ذلك النفر المفرّق على القاعة من الرجال الواجمين قد تلهّوا عن بعضهم وانصرفوا عن كلّ ما سواي بأبصارهم شاخصة إليّ، وبين جدران القاعة وقد صمّت عن مخرج أو منفذ.. ثمّ جزعت أتحرّك كالمشوّشة، أركض وأتوقّف وأتلفّت وأدور وأتحسّس الجدران، وقلبي داخلي اعتراه ممّا اعتراني ويفعل مثلما أفعل، فصارت تتعثّر أنفاسي وأنا أصرخ: «ألا يوجد باب؟».. هناك انقشع جمع منهم عن رجل مميّز عنهم بجسده الأوضح وهندامه الوضّاح، وصار يمشي نحوي في خطى متأنّية والصدى يعظّم وقع نعليه، فما شعرت بركبتيّ إلّا تزلزلتا لفرط ما خفت، وما شعرت بجسدي بعد زلزالهما إلّا اندكّ، فلململت شمل نفسي وانكمشت عليها وقد ضممت ركبتيّ المرتعشتين إلى صدري ورحت أهوّن عليهما عجزهما عن الوقوف بي، فهان عليهما الرضوخ وما هان عليّ، فغرست رأسي بينهما وانتظرت أمر ربّي وأنا أتمتم توسّلاتي، ثمّ وأنا كذلك وإذا بصوت ما عرفته وما أنكرته يقول لي في لطف وقد استقرّ أمامي:

- ما كلّ هذه الجلبة التي أحدثتيها آستر؟

أبعدت رأسي عن ركبتيّ ثمّ رفعته وجلة، فإذا هو أُحُد رحمة الله عليه يبتسم.

تلاشت لرؤيته كلّ مخاوفي، وصرت أحتمي بصورته من كلّ الصور الأخرى التي كانت تجمّع ما تلاشى من خوفي، وتبثّ رعبا ينفخ كالريح على رقعة روحي فتصطكّ له كلّ عظمة من عظام هيكلي، قلت له في هوشة لا يتخللها هدوء:

- علينا أن نخرج أُحُد، علينا أن نهرب، إنّني لا أتفرّس في هؤلاء خيرا!

ضحك ضحكته الهادئة التي لا يتخلّلها هوش قبل أن يقول:

- هؤلاء ضيوفي آستر، وهذا عرسي..

فصمتُّ وأنزلت رأسي كي أبتعد بنظري المشمئزّ عن نظراته المستبشرة، وقد أصابني عتب وتفشّى في غضب تأجّج فأخمد كلّ خوفي، أردت أن أقول له ألم تكن تزوّجت جوري؟! لكنّني لم أقل، فبادرني وقال نيابة عنّي ما لم أقله، أظنّه قرأه في عيني قبل أن تنصرف عن عينه ككلمات واضحة لحروف معهودة بمداد قاتم على ورق ناصع:

- وعروسي ليست حبيبتي وحدي.

ثمّ أشار على نفس التجمّع ففسحوا عن هيئة امرأة أبهمنيها برنوسها الأبيض المسدل غطاء رأسه على وجهها كما مسدل هو على طول جسمها، سلكت ما سلك أُحد نحوي، فانتهى بها المسلك كما انتهى به عندي، وأنا أنظر ذاهلة مترقّبة، أنزلت غطاءها عن رأسها إذ صارت جاثية بين يديّ وابتسمت لي تبسّم من على يقين أنّه مفاجأة سارّة لك، فإذا هي.. جوري! وقد عادت إلى عهد شبابها، على نفس تلك الصورة التي كانت عليها يوم عرسها وأُحُد،

فانقضضت عليها أضمّها وأقبّلها وهي تضمّني وتقبّلني، ثمّ أمسكت بيدي ووقفت وأوقفتني وسارت بي فإذا بالجدار ابتسم بباب فُرج لطلّتها سلّمتني لعتبته، فهممت أن أجرّها معي فامتنعت وقالت مشرقة الوجه متلألئة العين والبسمة:

- فارق ما شئت فإنّك لاحق..

ثمّ ترقرقت في عينها دمعة ودّعتني ودفعتني بها قائلة:

- وأحبب ما شئت فإنّك مفارقه.

وصرت خارج القاعة، وصُمّ الباب.

***

أيّ نداء خفيّ لبّاه حتى وجد نفسه داخل سيّارته؟ ثمّ وجدها كالمأمورة تسير به ولا تركن إلّا عند باب المقبرة، في تلك الأمسية العاصفة وضوء النهار لا يزال يتراجع نحو الاضمحلال.

نزل عنها بمطّاريّته في يده واخترق بوّابة المدينة الصامتة فإذا بصوت رجل ينادي عليه من ناحية اليمين:

- إلى أين يا عمّ؟ أما وجدت لزيارتك غير هذا الوقت الطامس من هذا اليوم الساخط؟!

- لن أتأخر!

اكتفى نيل بذلك الرد، وواصل سيره تحت مطّاريّته.

المقبرة هي المكان الوحيد الذي يعرّي الحياة ويجرّدها من كلّ قطعة زينة عليها..

أين أنتِ أيّتها الوجوه المزهرة؟

أين أنتِ أيّتها الأجساد الهرعة؟

أين أنتِ أيّتها الكسوات الزاهية والنظارات الشمسية والمجوهرات الذهبيّة والعطورات الأصليّة؟

أيّتها المباني المتطاولة التي تشرئبّ أعناقها طمعا في قبلة سماويّة؟

أيّتها الأفراح والأغاني الصاخبة؟

أيّتها الولائم والرقصات المنتشية؟

أيّتها الضحكات العالية؟

أيّتها البهجة الكاذبة..

أين أنتِ أيّتها الحياة؟

قام نيل عند قبر أُحُد، وانفجر يهطل عليه هطول السماء على مظلّته.. تراه قطع كلّ هذه المسافة لأجلها لا غير، هذه الجملة التي عند أعتاب شفتيه تدفع كجنين انتهت إقامته في بطن أمّه؟

- «حلمتَ وحقّقتَ ثمّ متَّ، ولا حلمتُ ولا حقّقتُ ولا متُّ.. من منّا أكثر موتا من الثاني؟».

كما وحدها المقبرة تفضح الحياة، وحدها الشيخوخة تفضح الهفوات.

يقول هوجو: «أسوأ الملل، أن تتواجد دون أن تعيش»..

كم نسبة الذين خطر على بالهم سؤال: «لماذا أعيش؟».

ألأنّ والداي أنجباني؟ أم لأنّي أطمح إلى منبر العالم أن أعتليه وأقول كلمتي؟

بعد طول تفكير، يجدر الاعتراف أنّ الحياة «العاديّة» تمنح شيئا كراحة البال.

جلابيّة محوكة، البس.. طريق معبّدة، أُسلك..

وفوق ذاك حشود الناس يلبسون ما تلبس ويسلكون ما تسلك، فتشعر بشيء كالأمان.

أمان خاطئ، أمان «إن عمّت خفّت»، أمان يجعلك تتقبّل الرسوب الجماعي.. ولا النجاح الفردي.

بالمقابل، الحياة الفذّة لباس ينتظر تصميمك وطريق تنتظر تعبيدك، ولا علاوة من حقّك من سوى أنّك.. لوحدك.

الرسوب رسوبك والنجاح نجاحك والكلمة كلمتك، تحيا حياة تجعل منك ملكا!

غير أنّه نهر الجرأة.. بين الملوك والعبيد.

والجرأة هذه فكر يلبس تهوّرا وينتعل جنونا ويعتمر لامبالاة، لأنّ كلّ خوض جديد يحتمل الإبداع كما يحتمل الفشل الذريع، وفي هذه الحالة الأخيرة لن يزيد الجريء على أن يرفع قبّعته ثمّ ينحني بها.. لمحاولته.

يبقى أنّ عموم الناس متحفّظون جدّا عندما يصير الأمر إلى المقامرة بالحياة، لمَ المجازفة عندما لا القمم تُهوى ولا الحفر تُجتوى؟

لكن..

في يوم ما، قد تنظر إلى القمّة كما الحفرة.. بحسرة.

نيل لم يكن حالة خاصّة، كان كزوجته وأولاده الأربعة وشهاب وشِفاء وحلا وغلا وهلا والمئات والآلاف والملايين والملايير: وُلدوا، أكلوا، شربوا، ناموا، تعلّموا وقليل منهم من عملوا وأقلّ من علموا، تزوّجوا وولدوا ثمّ في انتظار الموت يلقّنون من ولدوا فنون مهنة التقليد، هكذا لا تتوقّف هذه الحلقة الفارغة، ويظلّ الناس يطوفون.. حول الصفر.

أُحُد من كانها..الحالة الخاصة، أُحُد وأوراس وجوري وآستر.

عندما تقرّر بأنّ أحلامك تستحقّ أن تتحقّق ولو بعد حين، فأنت جريء.

عندما لا ترضى بأنصاف الحلول وبدائل عن الخيار الأوّل مهما كلّفك ذلك، فأنت جريء.

عندما تغتنم حرارة الألم كما تُغتنم طاقة الشّمس، فأنت جريء.

عندما تسبح عكس التيار قناعة لا انجرافا.. فأنت حتما جريء.

لا، الجرأة ليست أهمّ ما يميّزنا، فليس عندنا أين ستجد إنسانا يكرّس حياته جمعاء!.. لدراسة الدببة الشهباء. نحن مجتمع مازلنا نرى في شوارعه امرأة تسير خلف زوجها، ونسمع رجلا ينعت زوجته بـ«الدّار».. تلك التي تحمل كلّ الدّار على ظهرها.

إليك هذه النصيحة أيّها الطائر الشرقيّ، انقرها كما تنقر قمحك، عساك تصنع بها يوما قمحك:

هما رِجلان لا سير دونهما، وجناحان لا تحليق لولاهما.

لا يوجد شيء يسمّى رِجل تتّكئ على حامل داخل قفص وأخرى تثب خارج القفص، ولا شيء يسمّى جناح تلمّع القفص والأخرى تطير عن القفص، فإمّا أن توزّع ثقلك على رِجليك حتّى تهون وثبتك، ثمّ تنشر جناحيك كي يتيسّر إقلاعك.. أو لا تحملق في السماء بعد اليوم.

رأته كما تعوّدت..

بنفس البدلة البيضاء الناصعة، بنفس البشرة الأنصع من بدلته، بنفس الابتسامة الأنصع من بشرته، بنفس الوردة الزبرجدية في يده..

لم تركض إليه هذه المرّة خشية أن يبتعد كما عوّدها أيضا، بقيت واقفة دون حراك، حسبها صورته..

وإذا به.. يسير نحوها

خطت باتجاهه خطوة واحدة وجلة مرتعدة كيدٍ تبني قلعة من الأوراق..

فإذا به.. لا يحجم عنها.

خطت خطوة أخرى أكثر رجاء أقلّ جرأة.

فإذا به يسرع نحوها وقد ألقى بوردته الزبرجدية كأنّه على استعداد لجني وردة أبديّة!

وانطلقت نحوه كظبية أسروها ثمّ أطلقوها، وانطلق على كلا جانبيها وخلفها يعدو عدوها وقد اضطرم من جديد شعرها الأصهب، سمعت صوتا قادما من بعيد، كأنّه صوت قادم من عالم آخر، لكنّه صوت حبيب آخر، فكيف تتجاهله؟

توقّفت لبرهة متردّدة بين أُحُدين..

ثمّ انطلقت من جديد، كيف تتمالك روحا ها هو إفطارها بعد طول صيام؟ ها هو أجرها بعد طول صبر!

ارتطمت روحها بروحه ارتطام جسدها آنفا بالأرض، طوّقت عنقه كما لا أمل أن تفلته، آه لارتطام شربة الماء البارد بالريق الملتهب بعد طول غليل!

-أنا أشعر بك، أشعر بك حبيبي، أشعر بك!

اخترق بنظراته الرّؤوفة نظراتها الملهوفة، وضع كفّه على خدّها، فوضعت كفّها على خدّه، وراح كلّ منهما ترتجل خطوات أنامله في أشكال رسومها وهما لا تخطئ نظراتها نظراته، ولا نظراته نظراتها، ابتسم لها فضحكت له، بشّرها:

- ذلك أنّنا صرنا سويّة مجدّدا، حبيبتي..

انطلقت ضحكتها في السماء ترنيمة أطلّت لها وبشّت كلّ ملائكة السماء، ونادى مناد: «أن حيّ على الثواب لقد فني العذاب»، وتعانقت الأرواح، امتزجت في عالم يتصادق فيه الذئب والحمل، وتتحقّق الخرافات الجميلة، عالم حيث الوصال.. قطعا، بلا انفصال.

في كيان للنشر والتوزيع، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب تراسلنا، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 0235688678-**

هاتف محمول: **01000405450 / 01005248794 /01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing
kayan_publishing
Kayanpublishing
kayanpublishing
+KayanPublishing
KayanPublishing